الشخصية الناجعة

كتاب للشباب

سلامة موسى

الكتاب: الشخصية الناجعة .. كتاب للشباب

الكاتب: سلامة موسى

الطبعة: **2018**



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

موسى ، سلامة

الشخصية الناجعة .. كتاب للشباب / سلامة موسى

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

187 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **6 – 542 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **16660 / 2018**

الشخصية الناجحة

كتاب للشباب





تقدمة

في هذا الكتيب حاولت أن أوضح للقارئ العادي ماهية الشخصية وقيمتها، وكيف يمكن أن نكوِّنها ونخصبها، ذلك أن المجتمع المصري بتأليفه القائم يعوق نمو الشخصية الناجعة، كما أن هناك عادات تفشو بين الشباب وتحول دون رقي الشخصية، والقارئ الذي سيقرأ هذا الكتيب بالترتيب الذي وضعته،

بحيث لا يتعجل فصلًا قبل آخر في غير وضعه، جدير بأن يفهم كل ما ينبغي عليه فهمه كي يُنمِّي شخصيته ويرقيها على الرغم من العوائق الاجتماعية القائمة.

كما أن الآباء الذين يهتمون بشخصية أبنائهم يستطيعون الانتفاع في تربيتهم بما سيجدون في هذا الكتيب.

وموضوع الشخصية من الموضوعات التي يحتاج إليها مجتمعنا الجديد الذي خرج – أو أوشك أن يخرج – من الزراعة إلى التجارة والصناعة؛ أي: من القرية إلى المدينة، وفي هذا المجتمع الجديد يحتاج النجاح إلى الشخصية كما يحتاج إلى الذكاء، بل يحتاج إلى الشخصية أكثر مما يحتاج إلى الذكاء.

ويحسن بالقارئ إذا هو قرأ هذا الكتاب قراءة الدراسة وليس قراءة المطالعة؛ أي: يجب عليه أن يكون معه قلم للإشارة هنا وهناك بما يجب أن يلتفت إليه، وأن يلخص كل فصل، ويقارن بين فصل وآخر.

والشخصية التي قصدت إلى شرحها هي الشخصية السليمة، ولم أمس أمراض الشخصية إلا عن بُعد، وفي خفة وإيجاز؛ لأن هذه الأمراض كثيرة وشرحها يحتاج إلى عدة كتب، وقد لا يفهمها غير المختص، وأنا أخاطب في هذا الكتاب الشاب العادي الذي يعيش في المدينة ويختلط بالأوساط الحكومية أو التجارية، أو يعيش ويكتسب بالعمل الحر مستقلًّا أو موظفًا، وهو قبل كل شيء يحتاج إلى النجاح.

وجميع فصول هذا الكتاب قد كُتبت خاصة له، سوى فصل «الخاصة الاجتماعية للشخصية» فقد سبق لي أن نشرته في مجلة الشئون الاجتماعية حين كنت أحرر هذه المجلة، ووجدت أنه يأتلف مع ترسيم الكتاب؛ فأدخلته في باب «ماهية الشخصية».

وقد يجد القارئ تكرارًا في بعض الأمثلة؛ فليفهم أنه مقصود للتأكيد وإبراز الدلالة وتثبيت الفكرة، وأسلوب الكتاب، كما يتضح، تعليمي، وهو يبرر التكرار والتدرج في الشرح.

سلامة موسى

الفصل الأول

ماهية الشخصية

(١) الشاب المصري والشاب الأوروبي.

(٢) القواعد الوراثية للشخصية.

(٣) ماهية الشخصية.

(٤) الخاصة الاجتماعية للشخصية.

(٥) المسئولية فيتامين الشخصية.

(١) الشاب المصري والشاب الأوروبي

عندما نقارن بين شاب أوروبي وآخر مصري نجد أن الاثنين يتساويان في الذكاء، بل أحيانًا يتساويان في التعليم من حيث إتقان فن أو علم، والوقوف على جميع ما يتصل بالعمل، ولكن إلى هنا، وتقف المساواة؛ لأننا نجد في الشاب الأوروبي ميزات أخرى ليست في الشاب المصري، منها أنه رشيق الهندام، خفيف الحركة، سريع إلى الكلمة الملائمة والإيمائة اللائقة، متحرك، مبتسم، خبير بألوان التحية والترحيب، له جرأة على مقابلة السيدات أو الآنسات، قادر على محادثتهن بما يشهد له بالظُّرف، كما أنه جريء على مقابلة رؤسائه، لا يخجل ذلك الخجل المميت الذي يوهم الخوف أو الضعف أو العجز.

وكل هذه الفروق يعرفها شبابنا ويتحسرون عليها ويحاولون علاجها، وهي حروف الهجاء في تكوين الشخصية، ثم هناك بالطبع ما هو أخطر منها، فإن ذلك الشاب الأوروبي الذي ذكرناه يمكنه أن يضطلع بالعمل الحر وينجح فيه، ويمكنه أن يفكر في مشروع خطير ويقوم به، وهو في بيته يعيش في نظام، ويسعد بروابط عائلية لا يسعد بها شبابنا، وله عادات تعينه على النجاح، والحق أنه ينجح في ظروف مؤاتية أو معاكسة قد لا ينجح فيها شبابنا.

فنحن هنا إزاء شابين كلاهما على درجة متساوية من التعليم والذكاء، ولكن الشاب الأوروبي يمتاز بشخصية تساعده على النجاح، في حين قد حرمها الشاب المصري، فإذا تحرينا الأسباب التي أدت إلى هذا

الفرق وجدناها في ذلك المجتمع الأوروبي الذي تستفيض فيه الحرية، فتغرس في أفراده المسئولية، وهي الشرط الأول للشخصية.

ذلك أن الطفل ثم الصبي في العائلة الأوربية يجد حرية للعمل، وهذه الحرية تتيح له الخطأ والصواب اللذين يتعلم منهما السلوك الاستقلالي ويأخذ نفسه بالمسئولية، وهو يرى في أبويه شخصين يُحبهما ويُقبلهما في وجناهما كما يُقبلانه هو أيضًا، وهو يعيش معهما على المبادئ الديموقراطية، ويجد من آن لآخر الفرصة لأن يخرج ويعتمد على نفسه في اختيار الصديق أو دعوة الزملاء، بل المدرسة نفسها تتيح له بكثير من المخترعات في الملعب والنادي والمكتبة بأن يتعاون ويقرأ وحده بعد اختيار شخصي الكتاب الذي يُحب، وهو يخطب وينظم حفلة مدرسية أو نحو ذلك، فإذا ترك المدرسة ووجد العمل الذي يتكسب به رأى نفسه يعيش في مجتمع يحترمه ويمنحه صوتًا يقرر به رأيه في الحكومة التي تحكمه، ومثل هذا الشاب لم ير قط أن شرطيًّا يعتدي عليه بالضرب، ولم يجد رئيسًا يُطالبه بالخضوع الأعمى، ثم هو يجد أبواب الرقي الثقافي والحرفي والاجتماعي مفتحة أمامه، كما أنه يعيش في مجتمع مختلط من النساء والرجال، فهو يعرف كيف يعامل الآنسة أو السيدة معاملة ظريفة، ولعله رقص مع خطيبته أو غيرها فاكتسب من الرقص رشاقة للجسم ولياقة للنفس، وجميع هذه الظروف جديرة بأن تُكوِّن له شخصية محترمة محببة.

أما الشاب المصري فينشأ طفلًا في البيت، حيث يجد القسر مكان الحرية، ويجد الخضوع مكان المساواة، فهو يُقبل يدي أبويه بدلًا من أن

يُقبلهما في وجناهما، وهو يخضع لأوامرهما، ثم هو يرى أمه التي لا تزال محجبة ذلك الحجاب المادي أو على الأقل ذلك الحجاب الروحي، تخشى الغرباء ولا تجالس الناس، ولا تتحدث إليهم في حرية وجراءة، فهو يأخذ عنها ذلك التراجع، وييتئس بما عندها من حياء أو خجل، فينشأ وفي نفسه الخوف، هذا الخوف الذي قلما يستطيع الخروج منه مدى حياته.

ثم هو بعد ذلك يجد مدرسة قد أخذت بأساليب التعليم العصرية في دراسة المواد، ولكنها لم تأخذ بأساليب التربية العصرية، فهي تهتم بالامتحان أكثر مما تهتم بتكوين شخصيته، وهي تُطالبه بالخضوع لمعلميه أكثر مما تُطالبه بحبهم.

والمعلم كذلك يأمر ولا يعطف، ثم يخرج الشاب من المدرسة إلى مجتمع قد انفصل فيه الجنسان، بل هناك شبان مصريون قد بلغوا العشرين أو أكثر، لم تتح لهم هذه الحياة الشرقية التي يعيشون في بيئتها، أن يقعدوا إلى آنسة أو يساوروها في طريق يشتركوا معها في حديث، فهم من الناحية النسوية «متوحشون»؛ أي: في وحشة اجتماعية، لا يعرفون كيف يعاملون امرأة، بل عندما يُسئل أحدهم عن عقيدته في المرأة يجيب بسخافات نشأت في ذهنه؛ لأنه لم يعامل قط امرأة، وقد أحالته هذه الحال إما إلى ثائر عاجز، وإما إلى مستسلم مطاوع، وفي كلتا الحالتين لن تكون له تلك الشخصية النامية المتفائلة التي تكون في البيئة الحرة والمجتمع المختلط والحكومة العادلة.

ويجب أن يذكر القارئ أن الذكاء هو عبقرية الذهن، أما الشخصية فهي عبقرية الإرادة، وإذا كان مجتمعنا المصري؛ أي: العائلة ثم المدرسة ثم المجتمع الأكبر، كل هؤلاء يتجهون نحو كسر الإرادة أو تذليلها في الشاب أو الفتاة، فإنه لن ينجح في إيجاد الشخصيات البارزة، ولا نقول: السامية؛ لأنه لا تمكن شخصية قوية بغير إرادة قوية، ولا تكون الإرادة القوية إلا حيث الحرية التي تتيح العمل المستقل والابتكار الشخصي.

ومن هنا يمتاز الشاب الأوروبي عن الشاب المصري بشخصيته الناجعة التي تألفت في مجتمع حسن لم يصل إليه مجتمعنا إلى الآن.

(٢) القواعد الوراثية للشخصية

من المسلم به الآن أن الذكاء موروث كله أو معظمه؛ أي: أنه لا يزيد بتأثير الوسط إلا قليله أو لا يزيد بتاتًا، والذكاء يدلنا على القوة الذهنية ويمكن قياسه، ولكن الشخصية تقاس بالعواطف أكثر مما تقاس بالذكاء، فنحن لا نصف الرجل الذي يمتاز بالشخصية البارزة بأنه ذكي قادر على المعضلات في الفلسفة أو الرياضيات، ولكنا نصفه بأنه شجاع أو صبور أو قنوع أو متبصر، وهناك ما هو ضد هذه الصفات من الجبن والتعجل والطمع والطيش، وكل هذه هي صفات العواطف وليست صفات الذهن، ولهذا السبب نجد أن الشخصية أطوع للطبقة الاجتماعية من الذهن، فإن الرجل البليد لا ينتفع ذهنه بتاتًا بوجوده بين طبقة معينة من الناس الذين يمتازون بالرقي المدني أو الثقافي، أو هو قد ينتفع قليلًا جدًّا؛

لأن ذكاءه محدود، ولكن شخصيته، حتى مع بلادته ترقى إلى حد ما؛ لأنها تسير على غرار الطبقة التي يعيش صاحبها فيها؛ لأن تدريب العواطف أسهل من ترقية الذهن.

ومع ذلك لا يمكن أن ننكر أن هناك قواعد وراثية للشخصية؛ أي: أن الشخصية تتبع حالة معينة من الجسم، حتى إن هذا الجسم حينما يتغير بنمو أو تطور أو مرض تتغير الشخصية، فإننا نعرف مثلًا كيف تتغير شخصية الصبي في سن المراهقة حوالي الرابعة عشر من عمره حين يدخل في طور الشباب، وكذلك الفتاة، بل كيف تتغير المرأة عقب سن اليأس، وكذلك الخصي الذي تُجب خصيتاه تتغير شخصيته فلا يلتفت إلى الأنثى، ويموت فيه «اللبيد الجنسي» سواء أكان هذا في الإنسان أو حتى في الحيوان، واختلال بعض الغدد الصماء يُحدث اختلالًا في الشخصية؛ فإن الشذوذ الجنسي الذي يصاب به الشيخ بعد الخمسين قد ينشأ في حالات كثيرة من اختلال هذه الغدد.

وأجسام الناس تتبع أطرزة معينة، فهناك القصير المتكتل الذي يحب الضحك والنكتة والابتهاج، وهو سمر المجالس وسرور الأصدقاء، وهناك الطويل المعروق الذي لا يبتسم إلا بصعوبة ولا يتحدث إلا بمجهود، وشخصية كل منهما متأثرة بلا شك بفسيولوجية جسمه الخاص أو طرازه الفسيولوجي: الأول؛ أي: القصير، منبسط مكشوف متحدث، والثاني؛ أي: الطويل، منطوٍ مستور صامت.

وبلادة الذهن وبطء الحركة وخشونة البشرة ووقف النمو، هذه كلها هي نتيجة النقص في الغدة الدرقية (التي في العنق)، وأثرها واضح في الذكاء والشخصية معًا، وكلاهما يصح عندما تُعالج هذه الغدة، وكذلك الكظرية (التي فوق الكلية) تؤثر في حركة القلب، ولها لهذا السبب اتصال بصفات الشجاعة أو الجبن.

وكلنا يعرف أن التوءمين اللذين يمتازان بتقاسيم مشتركة في الجسم يمتازان أيضًا بقوة ذهنية متساوية، وبأخلاق متشابهة بل مطابقة، والأخلاق هي المجموعة التي تتألف منها الشخصية، وهذا يدل على أنهما، لما لهما من جهاز غددي متشابه، يتأثر كلاهما بمقادير متساوية من هذه الغدد فتتأثر أخلاقهما.

ولا يزال موضوع الغدد الصماء جديدًا، وفوائده للمستقبل أكثر مما هي للحاضر وسوف يكون أثره، كما نعرف من بواكيره، عظيمًا جدًّا جدًّا في تغيير وترقية الجسم والذهن والأخلاق.

ولأننا نجهل الكثير عن الغدد لا يسعنا إلا أن نتجاهل هذا الموضوع في مثل هذا الكتيب، وحسبنا ما أشرنا إليه هنا، لكن يجب ألا ننسى أن الاختلال الغددي يؤدي إلى نقائص بارزة واضحة في الشخصية، وما دمنا نُعالج الشخصية السوية في الإنسان العادي؛ فإننا نستطيع أن نُهمل الغدد ونتحدث عن الشخصية كما لو كانت غير متأثرة بها.

ومما يزيد الصعوبة في الكلام عن الغدد الصماء من حيث تأثيرها في الشخصية أن الجهاز الغددي في الإنسان موروث وليس مكتسبًا، فليس للفرد يد في تكوينه، وإن كانت الجراحة العصرية تفتح أبوابًا للأمل في تغيير هذه الحال، وفي إخضاع الغدد لألوان من المعالجة لترقية الشخصية.

(٣) ماهية الشخصية

الشخصية هي القدرة على السلوك الاجتماعي، وهي تقاس بهذه القدرة؛ أي: أنها قبل كل شيء خاصة اجتماعية، ويمكن الإنسان أن ينجح في عمله بلا شخصية أو بشخصية ضعيفة إذا كان نجاحه لا يحتاج إلى الاجتماع بالآخرين، فإن المؤلف الذي يعيش في جو من الكتب بين جدران مكتبته؛ كي يبحث موضوعًا في التاريخ أو الفلسفة ليس في حاجة إلى شخصية كي يؤدي هذا العمل، وكذلك العالم الذي يبحث موضوعًا في الكيمياء أو الطب أو الطبيعيات لا يحتاج إلى الشخصية الرشيقة اللبقة التي يحتاج إليها المحامي أو التاجر أو ربة البيت الاجتماعية، ولسنا نطلب من الراهب في صومعته أن تكون له شخصية، وقد لا يحتاج الفلاح الذي يرصد كل وقته واهتمامه للزراعة إلى أن يمتاز بشخصية قوية؛ لأن عمله الزراعي يستغرق كل وقته، وهو لذلك قليل الاختلاط بالناس.

وكلنا يعرف ذلك العالم الذي يستغرق في الاكتشاف أو الاختراع، ثم إذا اقتضته الظروف أن يشترك في اجتماع بيتي أو حفل رسمي بدا مربوكًا في حركته، أعسر في إيماءته، بل حتى الارتباك يتناول ألفاظه، فهو

يعجز عن الترحيب والحفاوة، يصمت عندما يُنتظر منه الكلام، ويتكلم بغير ما تواضع عليه الناس، أي أنه – بعبارة أخرى – لم يحقق ذلك الصقل الاجتماعي الذي يُنتظر من ذوي الشخصيات المهذبة المرنة، والواقع أن مثل هذا الرجل لا يحتاج عمله – نعني نجاحه في عمله – إلى شخصية عالية، ونحن نطلب منه ذكاء كي يصل إلى اكتشافه أو اختراعه أكثر مما نطلب منه شخصية.

فالشخصية هي القدرة على السلوك الاجتماعي، وهي تتفاضل بمقدار التفرق في هذا السلوك، وهي الصقل الاجتماعي الذي يعني الرشاقة في الحركة والحديث، ولباقة الإيماء والبعد عن الفجاجة الريفية، وهي القدرة على الخدمة الخاصة أو العامة، ونحن كثيرًا ما نصف أحد الناس بأن «ليس له شخصية» إذا اعتقدنا أنه غير قادر على خدمتنا؛ أي: الخدمة الخاصة، ولكن الخدمة العامة برهان أقوى على الشخصية من الخدمة الخاصة، وهناك درجات أخرى من الشخصية سوف نتحدث عنها، ولكنا نريد هنا أن نثبت أن الشخصية «خاصة اجتماعية»، وأنه كلما زادت ضروب الاجتماع الراقي للفرد زادت الفرص لترقية الشخصية، ومن هنا امتياز الشاب الأوروبي على الشاب المصري في شخصيته التي تغتذي بمجتمع مختلط من النساء والرجال مثلًا.

وقد يكون الإنسان من أحسن الناس قلبًا وذكاء واستقامة، ولكنه يسلك سلوكًا ريفيًا يحوي كثيرًا من الفجاجة أو الجلافة التي لا تُستنكر في الريف، ولكنها لا تُطاق في مجتمع المدينة، كما أنه قد يهمل ملابسه أو

يتكلم بلغة جافة، أو قد يكون ناشئًا في بيئة ثرية لم تُكلفه تبعات، فهو خائر الشخصية لا يُعتمد عليه، ففي كل هذه الحالات نجد شخصية ضعيفة.

وكما أن لكل كاتب أسلوبه الذي لا يتغير في الخط بحيث لا يمكن التزوير عليه بخط كاتب آخر، كذلك لكل إنسان شخصية معينة نعرفها في طريقته في المشي والكلام والإيماء، بل في أسلوب المعاملة من حيث ميله إلى المصالحة أو العناد أو التسامح أو التصاعب، بل أيضًا في نظرة للدنيا هل هو متشائم أو متفاءل، وهل هو منبسط منفتح أو منكمش لا يكشف عن أسراره.

ولكن إذا كانت الشخصية كالخط لا يمكن تقليدها فليس معنى هذا أنها جامدة لا تتغير، فإن القدرة على التغير هي إحدى خواص الشخصية الراقية التي تطلب العادات الجديدة، والاقتحامات الجديدة، والتعرف إلى شخصيات أخرى جديدة بغية الارتقاء والتكشف والنمو والتطور، ولكن «القدرة على التغيير» لا تعني أيضًا التقلب بلا ضابط، فلسنا مثلًا نرى الشخصية القوية في ذلك الشاب الذي يُدخن بضعة أشهر ثم ينقطع عن التدخين بضعة أشهر أخرى ثم يعود، ولا نرى أية شخصية في ذلك النيوروزي الذي يُغير أصدقاءه، أو في ذلك الآخر الذي يُغير زوجاته، وفي الأوساط المتمدنة تعلو قيمة الشخصية، ولهذا السبب لا تعجب حين تعرف أن أحد السيكلوجيين قام باستفتاء بين طلبة الجامعات الأمريكية عن الفتاة الجديرة بالإعجاب؛ هل هي الفتاة الممتازة بالجمال أو الممتازة

بالشخصية؟ فكانت الأكثرية في صف الثانية؛ لأن الشخصية هنا تعني الحيوية والتيقظ والمغناطيسية الجذابة والابتسامة المنيرة واللفظة الرشيقة ... إلخ، والجمال وحده لا يوازن هذه الميزات؛ لأنه يمكن أن يكون جمالًا باردًا جامدًا كأنه من جمال التماثيل.

وغاية الشخصية، هي بعد كل شيء، التأثير، فإن المحامي قد يكون درس قضيته الدرس الوافي، ولكنه لضعف شخصيته – سواء لقلة عنايته بملابسه أو سوء إلقائه أو خشونة صوته، أو غير ذلك من الأسباب التافهة التي يسهل علاجها – سيئ التأثير، فلا يصل إلى إقناع القاضي بصحة دعواه كما يصل إليها خصمه الذي ربما كان أقل ذكاء ولكنه أكثر تأثيرًا، والتأثير هو الوسيلة للإنجاز، فقد نكون أذكى الناس ولكننا لا ننجز عملًا لضعف شخصيتنا.

وقد ذكرنا هنا «الأسباب التافهة» التي تجعل الشخصية مؤثرة فعالة، ولكن هناك أسبابًا أخرى خطيرة ستكون بعض الفصول القادمة موضوع درسها.

والفرق بين الظريف والثقيل هو فرق في الشخصية، وقد يكون فرقًا حاسمًا في الحصول على المعاش أو الحرمان، والطبيب الناجح كثيرًا ما يُعزى نجاحه إلى شخصيته المؤثرة في المريض، بالحديث المقنع والكلمة الموحية والإيماءة الملائمة، وقد لا يُعزى إلى براعته في الطب، وكلنا يعرف أن التاجر المبتسم المتهلل خير من زميله المتجهم، والأول يكسب المشتري ويقترب من النجاح أكثر من الثاني.

وخلاصة القول: إن الشخصية هي القدرة على السلوك الاجتماعي الحسن والتأثير الفعال الذي يجعل ذكاءنا ومهارتنا مجديين، والإنجاز هو غاية السلوك الاجتماعي الحسن وغاية التأثير الفعال.

(٤) الخاصة الاجتماعية للشخصية

نحتاج إلى أن نؤكد الخاصة الاجتماعية للشخصية، فإننا نستطيع أن نميز بين الذكاء والشخصية بأن الأول هو حدة الذهن والثانية هي حدة الإرادة، ونستطيع أن نُزيد على ذلك فنقول: إن الذكاء أغلبه إن لم يكن كله موروث، لا يزيد إلا قليلًا أو لا يزيد بتاتًا بالوسط، أما الشخصية فأغلبها مكتسب، ثم نزيد على ما قدمنا بأن الذكاء انفرادي – إذا حذفنا من اعتبارنا اللغة – أما الشخصية فلا بد أن تكون اجتماعية.

ويقول الفرنسيون في أمثالهم: «الدفة أوقى من الشراع.» لأن الدفة هي التي توجه، أما الشراع فقوة غشيمة قد تحمل السفينة إلى الصخرة وتحطمها، وكذلك الشأن في الذكاء والشخصية: فإن الذكاء هو الشراع، هو القوة الغشيمة التي تستطيع أن تؤدي إلى الخير أو الشر، وإلى الخدمة الاجتماعية أو الإجرام الاجتماعي، ولكن الشخصية هي الدفة، هي التي توجه هذا الذكاء وتستخدمه.

قد لا يكون هناك أي فرق في مقدار الذكاء الفطري (وكل ذكاء فطري تقريبًا) بين عالم مكب على اكتشافه في المعمل وبين مجرم يتلصص في الظلام للفتك بالسابلة واغتصاب ما يحملون، ولكن هناك فرقًا عظيمًا

لا شك فيه بين شخصية الأول وشخصية الثاني؛ لأن الأول عاش في مجتمع معين حمله منذ الطفولة على أن يعجب ببعض القصص التي تشيد بذكر المخترعين أو المكتشفين، ثم نشأ على التلمذة في مدارس وجهته وجهة عالمية، واختلط بطبقة من المعلمين والأساتذة رأى فيهم قدوة فكانوا له بمثابة البوصلة تُعين اتجاهه، ومن هنا تكونت شخصيته التي تكشفت في النهاية إلى عالم بَحَّاثَة يُنشد المجد والسعادة والمكانة في موضوع يبحثه في معمله لخير البشر.

أما الثاني، الذي لا يقل ذكاء عن الأول، فقد عاش في مجتمع معين حمله منذ الطفولة على أن يُعجب بقصص المجرمين الذين سرقوا أو قتلوا وعجزت الشرطة عن إلقاء القبض عليهم، بل لعله في صباه قد ارتكب بعض السرقات الصغيرة في الحقل أو المنزل المجاور، وبدلًا من أن يجد اللطمة الرادعة من أبيه وجد التستر من أمه، ثم بلغ الشباب فعرف إخوانًا له يسيرون معه في اقتحامات مختلفة يداري بعضهم بعضًا، فكان هؤلاء الإخوان دفة وجهته وجهة الإجرام.

فنحن هنا إزاء شخصيتين مختلفتين كل الاختلاف، مع أن الذكاء قد يكون سواء بينهما لا يزيد أحدهما عن الآخر فيه، وإنما هي البيئة الأولى؛ أي: المجتمع الأول حين يكون التأثير الأخلاقي عظيمًا، ثم ما تلا ذلك من مجتمعات نصبت أهدافًا وعينت غايات.

أذكر أني عرفت أحد المجرمين، وكنت أُقاعده وأُسامره واستدرجه إلى ذكر جرائمه الماضية، فما كان أشد استغرابي له حين كان يقص عليَّ

اقتحاماته في لهجة الإعجاب بنفسه بل الحماسة، حتى كان أحيانًا يقف من فرط التأجج العاطفي حين يصف بعض المواقف، كيف سرق هذه البقرة، وكيف فر من هذا الخفير، وكيف استطاع أن يخدع السجانين ويهرب إلى السجن النقود والدخان وغيرهما، ولم ألحظ عليه قط أنه كان يخجل من ذكر هذه الجرائم أو يداخله ريبة في أنه لم يكن شريفًا، فلماذا؟

لأنه نشأ في مجتمع كوَّن له شخصية معينة هي شخصية المجرم، ولأن هذا المجتمع كان أفراده يمارسون الجريمة ويقصون قصصها أمامه قدوة يقتدي بها، ويعينون له هدفًا، وفي أثناء هذه التربية للجريمة يكون قد رسم لنفسه ميزانًا للفضيلة والرذيلة، فالفضيلة عنده هي الجرأة والمكر والتلصص والاقتحام والرضى بالعقوبة كأنه بطل أو شهيد، والرذيلة عنده هي الاستكانة والرضى بكسب العيش بالتعب والمواظبة والقناعة بالأجور التي ينالها غيره من أبناء قريته أو مدينته.

وعلى هذا يجب أن نقول: إن المجتمع هو الذي يربينا ويكون لنا شخصيتنا، مجتمع البيت أولًا ثم مجتمع الشارع وصبيان اللعب، ثم مجتمع المدرسة ومجتمع الحرفة، ثم القهوة والنادي والمكتب، والجريدة التي نقرأ والإذاعة التي نسمع؛ فكل هذه الأشياء هي مجتمعنا الذي يصدمنا في اليوم أكثر من عشرين مرة، ويكون لنا أخلاقنا ويبني شخصياتنا، ويوحي إلينا ويقدم لنا القدوة ويعين لنا ما يجب أن نعجب به ونحب أو نستقبح ونكره، ونحن نقيس الشئون الاجتماعية بأقيسة المجرمين إذا كنا قد نشأنا

في بيئته؛ أي: مجتمع، المجرمين، أو بأقيسة العلماء إذا كنا قد نشأنا في مجتمع العلماء.

وهذه الأقيسة يمكن أن تتغير بتغير المجتمع، والتغير بالطبع يكون أيسر إذا ابتدأ قبل اكتمال الشباب، ولكنه يمكث مع ذلك حتى بعد هذه السن، فلو أننا نقلنا صبيًّا من الفلاحين عندنا أو بدويًّا من الصحراء إلى نيويورك لن تمضي عليه سنوات حتى يكتسب شخصية أمريكية تراها في كل شيء من أخلاقه، من إيقاع القدمين في السير، إلى الروح الديمقراطي، إلى تعلم الرقص، إلى الإيمان بالنجاح المالي، إلى غير ذلك من سمات الحضارة الأمريكية.

فالمجتمع الحسن هو المدرسة المثلى لتربية الأخلاق، والمجتمع السيئ هو شر ما يمكن أن يُصاب به صبي في طفولته وصباه، والشخصية تتكون بالاجتماع ولا يمكن أن تنمو بالانفراد، وإذا شئنا أن نبني شخصيات سامية للمستقبل فيجب أن ننظر إلى بيوتنا؛ هل هي تُؤلف فيما بينها مجتمعات حسنة، وهل الحرب الأهلية القائمة داخل عائلاتنا يمكنها أن تبني هذه الشخصيات؟ ثم بعد ذلك يجب أن ننظر إلى الشارع والقهوة والنادي والمجلة والإذاعة؛ هل هي جميعها تبني أبناءنا أم تهدمهم؟

إن الشخصية إرادة؛ أي: نزعات أو اتجاهات، هي الدفة التي تُعيِّن للذكاء وجهته، وإنما نُعيِّن هذه الوجهة، بما نتعلم من المجتمع الذي نعيش فيه.

(٥) المسئولية فيتامين الشخصية

تطلق لفظة «فيتامين» على مواد ضئيلة الجرم خطيرة القيمة في نمو أجسامنا وصيانة صحتنا ووقايتنا من الأمراض، وفي نشاطنا الذهني والجسمي، ونستطيع أن نعيش معيشة التنفس أو المعيشة النباتية هامدين أو ساكنين لا نقوى على نشاط أو تفكير إذا حُرِمنا بعض هذه الفيتامينات، ولكن الحياة النشيطة تحتاج إلى الفيتامينات

وكذلك الشأن في الشخصية، فإن لأضعف الناس شخصية ما، ولو كانت ضعيفة حائرة أو ناصلة حائلة، ولكن الغذاء القوي الذي تنمو عليه هو المسئولية، وعلى قدر المسئوليات تتكون الشخصيات، وإذا عدم أحدنا المسئوليات ونشأ وهو لا يُطالب بتكاليف وواجبات فإننا لن ننتظر منه شخصية، أما إذا رُبِّيَ منذ الطفولة على تحمل المسئوليات تكوَّنت له بمر السنين شخصية محترمة.

انظر مثلًا إلى حال الصبي في البيت، فإنك إذا تركت له الحرية في العمل والسلوك إلى حد ما أعطيته الفرصة لأن يتحمل المسئوليات؛ لأن الحرية تعني المسئولية؛ إذ هو حين يمارس هذه الحرية سوف يصطدم بعقبات يجب عليه التفكير في عبورها، وعليه أن يجيب على أخطائه ويبررها، فهنا المسئولية التي تغذو شخصيته وتنميها، ونستطيع أن نُربِّي هذه الشخصية بأن نُكلف هذا الصبي واجبات صغيرة يقوم بها ويسأل عنها، وأن نكل إليه التصرف في بضعة قروش أو مليمات يكون له فيها حق الابتكار من ناحية الإنفاق أو الادخار، ومثل هذه المسئوليات

الصغيرة تُكوِّن رجولته الطفلة، وهذا بخلاف ذلك الصبي الآخر الذي لا يُكلَّف أي واجب، ولا تُطلق له حرية العمل في البيت أو التصرف ببعض النقود، فإنه ينشأ بلا شخصية؛ لأنه لم تُلق عليه أية مسئولية، ولهذا السبب يجب أن نستعمل النقود وسيلة لتربية الشخصية، وأن نُعطيها للصبي بحساب الأسبوع أو الشهر؛ كي نُزيد مسئوليته ونُجبره على التفكير والتبصر، فالنقود يجب أن تكون للتدريب كما هي للاستمتاع، وخير للصبي أن يشتري لنفسه أدواته المدرسية حتى ولو تعرض للغش والصداع من أن نشتريها له نحن؛ لأن خسارته حين يشتري بنفسه سيتعوض منها خبرة وتربية لشخصيته، أما ما دام يعتمد علينا فإنه ينشأ بلا شخصية.

وانظر في مثال آخر، هاك صبيين كلاهما حصل على الشهادة الابتدائية حوالي الثانية عشرة، وقصد أحدهما إلى المدرسة الثانوية يتعلم، وقصد الآخر إلى مكتب يعمل ويتكسب، فإذا عدنا إليهما بعد سنة وجدنا أن الصبي الثاني الذي عمل وتكسَّب قد تكونت له شخصية لم يحصل عليها الأول الذي تعلم؛ وذلك لأن العمل والتكسُّب قد أجبرا هذا الثاني على الاختلاط بالناس والحديث إليهم، فهنا نذكر أن الشخصية تُكسب بالاجتماع، وتقاس بالقدرة على السلوك الاجتماعي، ثم هو قد تحمل بالعمل والتكسُّب مسئوليات لم يتحملها زميله الذي قضى سنته في المدرسة، وصحيح أن هذا قد درب ذهنه وزاد معارفه، ولكن هذه كلها لم تُكوِّن له الشخصية التي إنما تتكون بالاجتماع والمسئولية، ونحن نميز بين الاثنين بمحض الحديث بضع دقائق إلى كل

منهما، فإن الصبي المكتسب يتحدث إلينا في لباقة وبلا خجل، وهو سريع إلى تلبية إشارتنا، راغب في سرورنا، يوهمنا الاستقلال، أما الثاني فمرتبك، خجول، محتجز، لا نستطيع أن نثق به.

ولهذا السبب أيضًا نجد أن الحرفة تُربي الشخصية، وهل منا من يجهل ذلك الوارث الذي يعيش في القاهرة بدخل ميسور يأتيه كل عام من عزبته، أو بضعة المنازل التي تُؤجر في المدينة، وهو قاعد هانئ، وكيف أنه قليل العناية بهندامه ولغته، سيئ الملابس، سيئ الحفاوة، سمين مترهل مربوك الحركة متعتع اللغة؛ ذلك لأنه لم يتحمل المسئوليات التي يتحملها الموظف أو المحترف في عمل يتكسب منه، حيث تحمله الرغبة في الكسب على العناية بهندامه ولغته والحفاوة بأفراد الجمهور.

وشخصية العامل في عمل حر أقوى وأنجح من شخصية الموظف في الحكومة لهذه الأسباب نفسها؛ أي: لاضطرار الأول إلى احترام الجمهور، وإلى تحمل مسئوليات كثيرة.

ومما يبصرنا بموضوعنا هذا أننا نجد الموظف العادي قد امتاز فجأة بشخصية جديدة حين يُرقى إلى مركز سامٍ له فيه رياسة ما، فإن هذه المسئوليات الجديدة تحيله شخصًا آخر قد زادت عنايته بهندامه ولغته، بل تزيده أحيانًا حتى في ثقافته.

وكلنا يعرف الفرق بين الشخصية الناضجة التي تمتاز بها الزوجة – وأكثر منها الأم – وبين الشخصية الفجة التي نجدها في الفتاة، فإن

الزوجة قد تحملت مسئوليات الزواج والبيت، وأحيانًا الأمومة، وقد عاملت الخدم والأطفال وبعض طبقات المجتمع، وقد استضافت الزائرين، وطُولبت بالترحيب بهم والاستعداد للقائهم، وشغلت ذهنها بصحة أطفالها والعناية بتربيتهم، واضطرت إلى التبصر للمستقبل، وكل هذه المسئوليات قد كوَّنت شخصيتها التي تجعلنا نحس الثقة بها حين نتحدث إليها، أما الفتاة فلم تجد الفرصة بالمسئوليات الجسام لأن تتكوَّن شخصيتها إلى هذا الحد.

فالمسئولية هي التي تكوِّن الشخصية، وإذا شئنا أن نُربي أولادنا على أن ينشئوا لهم شخصيات ناجعة محترمة؛ فإننا يجب أن نُكلفهم المسئوليات منذ طفولتهم، ويحسن أن نكلفهم أعمالًا يتكسبون بها – إذا استطاعوا – مدة الإجازات المدرسية، ما دامت هذه الأعمال لا ترهقهم، بل ربما يكون من الحسن أن ترصد سنة وسط الدراسة؛ لكي يؤدوا فيها عملًا كاسبًا يضطرهم إلى الاختلاط بالمجتمع، ويحملهم مسئوليات لا تعرفها المدرسة أو الكلية، كما يُجبرهم على احترام المجتمع، ويُصقل سلوكهم في اللغة والحركة، وإذا فعلنا ذلك فإننا نتوقى ذلك الارتباك الذي نراه كثيرًا في خريجي الجامعة، بل نتوقى – وهذا أخطر – ذلك الخوف من تحمل المسئوليات.

الفصل الثاني

عوائق النمو في الشخصية

(١) التربية المنزلية وأثرها.

(٢) حجاب المرأة وأثره.

(٣) الفصل بين الجنسين.

(٤) العادات التي تضعف الشخصية.

(٥) مركب النقص.

(٦) المباراة الاقتصادية.

(٧) شخصية المرأة.

(٨) رواسب الطفولة.

(٩) مجتمعنا المصري يعوق الشخصية.

(١٠) تلخيص.

(١) التربية المنزلية وأثرها

يقاس الذهن بمعدل الذكاء وتقاس الشخصية بمعدل العاطفة، والذكاء بطبيعته مرن لا تُؤثر فيه العادات، ولكن العاطفة تجمد بالعادة، ولا تكاد تتغير إلا بمجهود شاق، ونحن حين نبحث الشخصية عند أحد الأفراد نلتفت إلى الأسلوب الذي يتخذ في عواطفه؛ أي: كيف ينشط؟ وهل يتخذ نشاطه أسلوب المثابرة أم أسلوب الوثبة، أو هو حين يغضب يكظم ويكتم أو يصارح ويهاجم؟ وهل هو رعديد أم ضديد؟ يخاف أم يجرؤ؟ وهل هو يعالج مشكلاته بالتحدي أم بالفرار أم بالمصالحة؟ وهل هو اجتماعي أنيس يختلط بالناس أم يُؤثر العزلة والانفراد؟ وهل هو حيي ظريف أم خجول متراجع؟ وهل هو جريء إلى حد الوقاحة أم صريح فقط يكره المواربة؟

وكل هذه الحالات تدل على العاطفة ولا تدل على الذكاء، ومجموعة العواطف التي نتهيأ بها لمواجهة الحياة، والتي تتكوَّن بها شخصياتنا، إنما تتكوَّن أيام الطفولة، ومن هنا قيمة التربية المنزلية وأثرها في الشخصية، ولهذا السبب نجد أن لكل بيت طرازه المعين من الشخصيات التي نبتت ونمت في بيئته وجوه، لهم طريقة معينة في الغضب إما بالصراخ والسب والعربدة، وإما بالكظم والصمت والسكينة، ولهم طريقة معينة في مواجهة المشكلات إما بالتدبير والتأمل، وإما بالهجوم الأعمى، وإما بالتجاهل والفرار، يتعلمون ذلك بالقدوة فتأخذ عواطفهم قوالب معينة تثبت عليها مدى الحياة.

وكثيرًا ما قيل بحق: إن المدرسة تُدرب الذكاء وتُنير الذهن، ولكن البيت هو الذي يُعلِّم الأخلاق؛ أي: يربي الشخصية، وشخصية الشاب الأوروبي أنجع من شخصية الشاب المصري؛ لأن البيت الأوروبي يمتاز بآباء متمدنين، وبجو من الأمن والطمأنينة لا يمتاز بمثلها البيت المصري، فالشاب في أوروبا ينشأ على عادات تتدرب بها عواطفه في طلب الطعام وتناوله، وفي معاملة الخدم، وفي مقابلة الضيوف، وفي التصرف الاستقلالي، وفي غير ذلك مما لا يجد مثله الشاب المصري، فنحن مثلًا في مصر نأتي بالخادمة الصبية من الريف ونشتمها ونضربها أمام أطفالنا؛ فيشبون وقد اكتسبوا منا هذا الأسلوب الوحشي في المعاملة، فالسباب يجري على أطراف ألسنتهم وأيديهم مرفوعة بالاعتداء لأقل احتكاك، ونحن نمنع أطفالنا من لقاء الضيف فينشئون وهم يخافون الغرباء، لا تتحرك ألسنتهم بكلمة التحية أو الترحيب إلا بمشقة وبعد تعنيف، ونحن نأكل بالتهام، ونهمل أدوات المائدة، فينشأ أطفالنا بالقدوة وهم يتعجلون الأكل، فيسيئون إلى الغريب إذا اشتركوا معه في المائدة، ومرجع ذلك أننا لم نتكلف قليلًا في التزام عادات حسنة وقت الطعام، وكل شخصية تحتاج – في الأول على الأقل – إلى شيء من التكلف.

ثم قد يكون البيت من تلك البيوت القديمة التي تعتز بالتقاليد وتؤمن بالعصا والقسر، فلا يكون للأطفال شيء من الحرية، ولا يجوز لهم اللعب والانطلاق إلا بإذن، فينشئون وهم لا يعرفون الاستقلال، بل يخشونه ويفرون منه، وعكس ذلك بيت آخر يترك الفوضى تعم الأولاد حتى يفعلوا كل ما يشاءون، ولا يحسنوا تكليفًا معينًا في الحديث واللعب

والإيماءة والمشي والتصرف، وكلا البيتين سيئ، القسر والتقيد يؤخران نمو الشخصية، كما أن الإباحة تعمم الفوضى، ولكن الطريق السديد هو وسط بينهما ... تكليب دون قسر وحرية دون إباحة.

والبيت الحسن الذي يُربي الشخصية الناجعة؛ هو ذلك الذي يمتاز بأبوين محبين يُحب أحدهما الآخر ويحترمه، وهو بيت موقر يستقبل الضيوف في وقار وبلا أبهة سخيفة، تنظم فيه المائدة الحسنة ولكن غير المطهمة، والخدم فيه محترمون لا يسب واحد منهم، وللأطفال فيه غرفة أو بهو يستطيعون فيهما اللعب الحر، ولكل طفل أو صبي مصروفه الأسبوعي أو الشهري (وليس اليومي)؛ كي يتصرف ويتحمل مسئولية الحساب بين الوارد والمنصرف على مدى أيام، وهو البيت الذي يحتوي مكتبة عصرية، وصورًا فنية، وجرائد ومجلات حسنة لا ينقطع ورودها حتى يتشبع الجو بالسياسة والثقافة، فينشأ الصبي والصبية وهما يعرفان أن اللغو والقيل ليست من شأن الرجل العصري المهذب.

والبيت الحسن الذي يُربي الشخصية هو الذي يستشير فيه الأبوان الأطفال عن النزهة المنتظرة، أو طعام الغد، أو زيارة هذا القريب، بل هو الذي يؤلف من أعضاء العائلة جمعية لمحاكمة الصبي المتمرد، أو لتعيين النشاط الذي قد يتخذه الأعضاء بعد أسبوع أو شهر في شأن معين؛ حتى ينشأ الطفل ديمقراطي العواطف يشعر بحقوقه وواجباته

(٢) حجاب المرأة وأثره

إذا كان المجتمع المصري قد ضُرِبَ بضربات عدة ثقيلة تُحطم كيانه وتهدم شخصيات أفراده، من الملوكية العاتية إلى الأرستقراطية الفاجرة، إلى الفاقة المهينة؛ إلى غير ذلك، فإن حجاب المرأة يجب أن يُعد من أفدح هذه الضربات، ليس للمرأة وحدها بل للرجل أيضًا

ذلك أن الشخصية كما قلنا خاصة اجتماعية تخصب بالاجتماع وتضمر بالانعزال، والمرأة التي حُبست في البيت ومُنعت من الاختلاط بالتاجر والصانع، وقصرت معاملتها على الزوج والأطفال والخدم، وزيارة الأقارب وشراء الحاجات التافهة على عتبة الباب، هذه المرأة التي لا تحضر محاضرة ولا تؤدي عملًا يُطالبها بالسفر والتنقل، أو تحمل مسئوليات اجتماعية أو مالية أو حرفية، لا يمكن أن تتكون لها شخصية، وهي بالقياس إلى امرأة أخرى تحترف وتعيش بما تكسب تُعد – من ناحية الشخصية – في شبه الطفولة، ونحن نلتقي أحيانًا بمثل هذه المرأة التي تنقرض رويدًا رويدًا في عصرنا؛ فنجد الجمود الحيواني الذي يبدو كأنه حياء، مع أنه في الواقع مجموعة من الجهل والخوف والانعزال الروحي والمادي عن المجتمع.

وهذا الحجاب قد أفسد مجتمعنا؛ لأنه عزل المرأة وقصرها على شئون البيت، وشئون البيت عند المرأة المحجبة القديمة هي الطبخ والغسل والتناسل، وليس في هذه الأعمال ما يكوِّن الشخصية، وقد خفت وطأة الحجاب عما قبل أو تراخت قيوده في بعض البيئات، كما أنه أُلغي تمامًا

في العائلات المصرية الراقية، ولم يعد أحد يدافع عنه باعتبار أنه من التقاليد التي يجب أن نقدسها ونصونها، ومع الأسف لقيت الدعوة إلى السفور معارضة مثابرة أكثر من أربعين سنة منذ بداية نهضتنا الاجتماعية، ومعارضين من الزعماء كما نرى في كتاب طلعت حرب الذي رد به على قاسم أمين.

ولكن مع هتك الحجاب المادي لا يزال الحجاب الروحي قائمًا، فإننا ما زلنا كارهين لدعوة المساواة بين الجنسين، إذا أجزنا دخول فتاة في كلية الآداب منعناها من الدخول في كلية الهندسة أو الزراعة، وإذا سمحنا لها بالحصول على إجازة كلية الحقوق منعناها من احتراف القضاء، ونحن نُجيز للمرأة أن تكون معلمة أو مفتشة في وزارة المعارف أو طبيبة في وزارة الصحة، ولكننا لا نُجيز لها أن تكون وكيلة، فضلًا عن وزيرة في المعارف أو الصحة.

ولست هنا بسبيل البحث عن حقوق المرأة التي ساوت بينها وبين حقوق الرجل جميع الأمم المتمدينة، ولكني أنظر إلى حرمانها من هذه الحقوق، وإلى الحجاب، من الناحية الشخصية، فإن شخصية المرأة تضمر وتهزل بمقدار المدى الذي يصل إليه هذا الحرمان، والوطأة التي يثقل بها الحجاب؛ لأن شخصيتنا تنمو بالاختلاط والمعاملة وتحمل المسئوليات الجسيمة، ونحن نرى أثر الحرمان والحجاب حين نقارن بين امرأة محترفة وبين امرأة محجبة، الأولى صاحية يقظة متكلمة متنبهة إلى مجتمعها تتحدث عن الدنيا والوطن والسياسة والحرب والبر، وتهتم بالنشاط الاجتماعي،

وهي رشيقة الحركة مهندمة الملابس، بعيدة عن ترهل الجسم أو الذهن، نقعد إليها فنحس أننا إزاء إنسان مثلنا نخاطبه على قدم المساواة، ولا نحس الرغبة في أن نتغاضى عن نقصه أو نرعاه في عجزه، أما المرأة المحجبة فإننا – حين نلقاها في النادر – نحس عجزها، ونخاطبها كما لو كانت طفلة نجاريها في الحديث ولا نجادلها لو أخطأت؛ لأننا نشعر أننا يجب أن نتسامح معها لعجزها، وعندئذ لا مفر من أن نعترف للأولى بشخصية محترمة أو محببة، وننكر هذه الشخصية على الثانية.

ولأن المرأة المحجبة – بالحجاب المادي أو الحجاب الروحي – لم تتعود تحمل المسئوليات، كثيرًا ما تسيء إلى أبنائها إذا ترملت؛ لأنها تعجز عن إدارة تركة الأب كما تعجز عن تربية الأبناء، ومن أين لها ذلك إذا كان زوجها يمنعها من الاختلاط ودراسة المجتمع، ويقصر تربية الأولاد على نفسه؟ ومن هنا كارثة الأوصياء الذين يسنمون بالوصاية على الأم العاجزة، وما أعجزها عن إدارة أموالها وتربية أولادها سوى الحجاب.

وقد قلنا: إن المرأة المحجبة لا تُربي أولادها؛ لأنها تعجز عن ذلك، ولكن هذا التعبير مخطأ؛ لأن المرأة حين تصير أمًّا لا تستطيع أن تقف الموقف السلبي من تربية أبنائها؛ أي: تترك هذه التربية للأب وحده؛ لأن التربية الحقيقية تكاد تنتهي عند السادسة من العمر، والأب قلما يعامل أطفاله وهم دون هذه السن، وإنما الذي يعاملهم ويربيهم هو المرأة، تربيهم بالقدوة.

فالأطفال الذين يرون أمهم تختبئ عندما يطرق الباب زائر، وتتجنب مقابلة الغرباء يقتدون بها في الخوف الذي يلازمهم مدى حياتهم، وليس هناك شك في أن الشاب الأوروبي أجرأ على مقابلة الغريب، وأرشق حركة من الشاب المصري لأثر الحجاب هذا.

ولذلك يجب ألا نعتقد أن الحجاب يضر المرأة وحدها؛ لأنه يفقدها شخصيتها؛ إذ إن الحقيقة أنه يضر الرجل أيضًا من حيث إن المربي الأصلي له هو المرأة؛ أي: الأم، ويجب لهذا السبب أن نُكافح الحجاب بشكله الروحي؛ أي: منعها من الاشتغال في الشئون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كأن الوطن ليس وطنها، بل وطن الرجل وحده

وكي نكون شخصية المرأة وننميها يجب ألا نرتكب أي عمل يؤدي إلى أن تفهم منه منذ السنة الأولى من عمرها أنها دون الرجل، فعلينا أن نساوي بين الصبي والفتاة في الحقوق والواجبات، وأن نكلفهما على السواء المسئوليات، وأن نخلطهما بالمجتمع يتشربان روحه ويتفهمان سبله، وإذا كان الرجل في العادة يمتاز بالحرفة التي تُنمي شخصيته وتُرقيها، فإن المرأة تمتاز بالأمومة، وهذه إلى حد ما تُكوِّن شخصيتها وتُنميها، والمرأة المثلى من حيث الشخصية هي تلك التي تجمع بين الحرفة والأمومة كما هي الحال في أوروبا وأمريكا، ومجتمعنا في الوقت الحاضر لا يسمح بهذا إلا في النادر.

(٣) الفصل بين الجنسين

في سن المراهقة يحتد الشعور الجنسي عند الشاب والفتاة، وهذا الشعور يبدو حياء أو ارتباكًا أو خوفًا من الجنس الآخر، وليس في هذه الأعراض ما يبعث على القلق؛ لأنها لا تدوم سوى فترة وقتية، ثم يعود كل منهما إلى شعور سوي نحو الآخر.

ولكننا في مصر – لأننا نفصل بين الجنسين – نجعل هذه الفترة تمكث أطول مما كان يجب، بل أحيانًا تدوم مدى الحياة؛ ذلك أننا منذ الطفولة ونحن نلقن من أبوينا بأن الجنسين يجب أن ينفصلا، ونرى هذا الانفصال قائمًا في المجتمع، فهناك مدارس للبنين وأخرى للبنات، وهناك انفصال في المجتمعات العائلية منذ المراهقة، بل عندنا من يلحون في الفصل بين الجنسين عند الشواطئ، وفي الترام نجد مقاصير خاصة بالنساء، بل كذلك نجد هذه المقاصير في عربات القطار، وهذا الانفصال يجعل الشعور الجنسي مضطربًا يلهيه التطلع للخفايا والرغبة في الوقوف على خواص الجنس الآخر، ولذلك يؤدي الخيال ما ينقص الواقع، ولكنه يؤديه على غير الأساس الصحيح.

ومن هنا إقبال شبابنا عقب المراهقة على العادة السرية؛ ذلك لأننا قد نفيناهم أو نحيناهم عن الواقع حين منعنا الاختلاط بينهم وبين الفتيات، فدفعتهم الرغبة الجنسية إلى الاستسلام لخيال تعويضي يجترون الصور النسوية في وحدتهم فتلهب شهواتهم، وهم كلما تمادوا في الخيال ابتعدوا عن الواقع، حتى ليشق على الشاب بعد ذلك لقاء فتاة أو

التحدث إليها، وإذا زاد التمادي في الخيال أنكر الشاب المرأة وقنع بأخيلته، وهنا الكارثة.

ولكن ما شأن هذا بالشخصية؟ شأنه عظيم؛ لأن الشخصية الناجعة تحتاج إلى الاتجاه الاجتماعي السوي، ونصف المجتمع من النساء، فإذا عجز الشاب عن معاملة الجنس الآخر فهو ناقص الشخصية، ومهما يكن لبقًا رشيقًا فإنه يضطرب ويشعر بخبال عندما يلتقي بامرأة ما دام في هذه الحال.

والنجاح في الزواج يحتاج أول كل شيء إلى شخصية ناجعة تغري الفتاة أو الفتى بقبول الخطبة، والفتاة التي تضطرب عند لقاء الشاب – أو العكس – تُتهم بالارتباك؛ أي: البعد عن الرشاقة، وكذلك الشاب يبدو جلفًا جافيًا بطيء الذهن والحركة، وقد يفقد أحدهما الآخر ولا يتم الزواج؛ لأنهما لم يتعودا الاختلاط، ولم تتكون لهما شخصية جنسية راقية مهذبة رشيقة، وإذا كان النجاح يحتاج إلى الشخصية، فإن أكبر الخيبة في الحياة هي خيبة الشباب في الحصول على الزوجة التي يطمح إليها، لا لشيء إلا لأنه نشأ منفصلًا عن الجنس الآخر، لا يعرف كيف يعامل أفراده.

وحسبنا أن نقارن بين شاب مصري وآخر فرنسي أو إنجليزي قد اتفق وجودهما في مجتمع مختلط، فإن الأول يبقى جامدًا أو مضطربًا ومتزويًا، يتوقى الحديث مع السيدة أو الآنسة في حين أن الشاب الإنجليزي أو الفرنسي يُسارع إلى الحديث والاختلاط كما تسارع البطة

إلى الماء، وفي مباراة جنسية غايتها يد فتاة ما، يتغلب الشاب الأوروبي على الشاب المصري تغلبًا ساحقًا.

وارتباك الفتاة أو جمودها يُنقص من جمالها أيضًا، ويفوت عليها فرصًا في الزواج، ولكن هناك شأنًا آخر له قيمة سيكلوجية، وهو أن الانفصال بين الجنسين يجعل الشاب يهمل هندامه وعاداته في الحديث، فيفقد كثيرًا من الظرف والكياسة حتى في مجتمع الرجال؛ لأن الاجتماع المختلط يحثنا على طلب الإعجاب من الجنس الآخر، وهذه العناية تحثنا على التكمل في الهندام والحديث، وتوخي الظرف والكياسة، ومراعاة النظافة، ونحن نفقد هذا أو كثيرًا منه بالانفصال القائم في مجتمعنا بين الجنسين، ومن هنا أيضًا هذه الجلافة في النكات الغليظة التي تتفشى في مجتمع الرجال عندنا، وهي جلافة لا يمكن أن توجد في مجتمع أوروبي مختلط.

بل يمكن عند التأمل السيكلوجي أن نصف مجتمعنا الحاضر بأنه في سكون عام – أي: غير سليم – يتوهم أوهامًا وقيمًا زائفة غير سوية، والشاب أو الفتاة اللذان ينشآن في هذا المجتمع هما بعيدان عن الحال السيكلوجية السوية التي هي ثمرة الصحة النفسية.

(٤) العادات التي تضعف الشخصية

لكل عادة سيئة يقع فيها الشاب أسباب سيكلوجية هي التي دعت إليها، وهي التي حملت معتادها على أن يداوم عليها حتى رسخت وصارت «طبيعة ثانية»، فإن الشاب الذي يلجأ إلى الخمر ويعتادها إنما يفر من

الواقع؛ كي يسري عن نفسه همومه وصعوباته بالاستسلام للخيال الذي تثيره الخمر، وكذلك معتاد التدخين يلجأ إلى هذا المخدر المنبه؛ كي يفرج عن ضيق دائم أو وقتي.

ولكننا لسنا الآن بسبيل البحث عن الأسباب لهذه العادات أو غيرها، وإنما ننظر إليها من حيث أنها تضعف الشخصية وتعوق نموها، فإن «سيكلوجية العادة» تحتاج إلى كتاب مفرد، ولكننا نكتفي هنا بأن نقول: إن الشخصية الناجعة تحتاج إلى مرونة أو لدونة بعيدة عن التحجر النفسي الذي تحدثه العادة، فإن الرقي يعني في كل الحالات تغييرًا، وهذا التغيير تعوقه العادة الراسخة.

ولنضرب على ذلك مثلًا بالخمر أو المقامرة، فها هما قياسًا عادتان مستوليتان على الشباب، ويستهلكان وقته وماله، فهو مشغول بهما منذ الغروب إلى ساعة متأخرة في الليل، وطيلة هذا الوقت قد حرم المخالطة المنيرة للأصدقاء والمعارف، كما حرم قراءة الكتب التثقيفية والملاهي الراقية والرياضة المفيدة، وسائر ما يسمو بالشخصية، وهذا إلى الخسار المالي الذي يحرمه من شراء الحاجات للرقي الذهني أو الجسمي أو الاجتماعي أو العائلي، وإذا رسخت العادة في الخمر أو القمار أدت إلى انهيار الشخصية؛ لأن المدمن قد يشرب الخمر في النهار، وأسير القمار قد يقع في الإجرام.

وعادة أخرى – وإن تكن أقل سوءًا من العادتين السابقتين – هي الإدمان للتدخين، فإن ما فيها من تفريج وقتي لا يعادل خطرها المالي

والصحي، بل الواقع الذي تثبته الإحصاءات في شركات التأمين أن التدخين أضر بالصحة من الخمر، ولكن ما نثبته نحن هنا أن الخمور أضر بالشخصية من التدخين، بل من القمار، وجدير بمن يكافحون الخمور أن يقتصروا على ذكر الأضرار الفادحة منها للشخصية دون الصحة.

وقد شاهدنا من بعض المدخنين عادات وإيماءات تدل على قلق نفسي، وعلى غلظة بعيدة عن الرشاقة والجمال والظرف التي تتصف بها الشخصية الراقية، وخاصة شخصية المرأة، وعادة التدخين تبدأ للرغبة في تكبير الشخصية، ولكها تنتهي بإدمان ينأى عن الرشاقة والكياسة.

وهناك عادات أخفى مما ذكرنا تؤثر في الشخصية أثرًا سيئًا، من ذلك مثلًا التسكع الأخلاقي الذي يبدو في شاب ليست له مبادئ يوسم بها، بحيث لا نستطيع أن نتكهن بما سوف يسلك حين تواجهه الحوادث أو الأخطار، فهو لا يسير على خطة معينة، بل يعمد إلى التقلب، تارة يتسامح وأخرى يتصاعب وأحيانًا ينشط وأخرى ينقبض، ومثل هذه الحال نادرة، وهي أقرب أسلوبًا إلى المرض النفسي منها إلى الصحة النفسية؛ لأن الرجل السوي يتخذ أسلوبًا معينًا قد استقر عليه بتفاعل معين بين نفسه وبين البيئة المحيطة، ولكنا على كل حال ننتظر ممن يمتاز بشخصية ناجعة أن تكون قاسية صارمة أو رحيمة عاطفة، ولكنا لا ننتظر منه التقلب بين الكِفتين.

وهناك التسكع الذهني، فإن من يُعنَى بترقية شخصيته يكره الاستهتار الثقافي، فهو لا يقرأ كي يقتل الوقت، كأن الوقت أرخص

الأشياء، وأحيانًا أتعجب من الشاب الذي يلعب إحدى لعب الحظ حين يقول: إنه يقتل الوقت ولا يقامر، كأن إضاعة ساعة من الزمن أرخص عنده من إضاعة قرشين من النقود، مع أن القرشين يمكن تعويضهما أما الساعة فلن تعوض، والشاب الذي يُنمي شخصيته يجب أن يضع لنفسه برنامجًا للدراسة يقوم على نظام حاوٍ وافٍ، لا يقرأ جزافًا ولا ينفق وقته وذهنه في القراءة الرخصية.

وإذا كانت عادة التسكع تدل على نشاط أعوج، فإن هناك عادة أخرى لا تدل على أي نشاط، هي الترهل الذهني الذي قد يرافقه ترهل جسمي، وكلاهما يتضح لنا في ذلك الشاب السمين قعيد المقاهي الذي يسدر ويهيم كأنه لا يجد على الكرة الأرضية ما يشغل باله، فهو راكد الجسم والذهن، ولهذا الترهل أسباب سيكلوجية بالطبع؛ لأنه فرار من الواقع بالاستسلام للخيال من جهة، وباستسلام لملاذ المائدة من جهة أخرى، ولا بد من التغلب على هذه العادة؛ أي: معالجتها؛ كي ترقى الشخصية.

وهناك عادات أخرى تُضعف الشخصية، وهي جميعًا تلتف حول الغريزة الجنسية، وتدل على انحراف؛ أي: زيغ فيها، مثل: العادة السرية، والشذوذ الجنسي، والتشرد الجنسي.

فالعادة السرية التي يؤدي الإدمان لها إلى انعزال الشاب واستسلامه للخيال، وإلى قلق نفسي ووسوسة دائمة، هذه العادة يجب التخلص منها، وكذلك الشذوذ الجنسي الذي يجعل الشاذ يتهم نفسه وينكمش

ويتوسوس ويجبن، وكلتا العادتين عائقة عن الاختلاط السوي بالجنس الآخر، كما هي عائقة عن الرقي، وشخصية الزائغ مريضة تحتاج للعلاج العاجل.

وهناك زيغ آخر قلما يلتفت إليه هو التشرد الجنسي؛ أي: كراهة الاستقرار، فالشاب لا يستقر على حب معين، بل ينتقل بسرعة كأنه هائم أو ناهم، وهذا الزيغ يدل على «مركب نقص» يحتاج أيضًا إلى علاج.

وجميع هذه العادات هي في لبابها فرار من الواقع وكراهة لمواجهة الدنيا، كما هي بصعوباتها ومشكلاتها القائمة، فهي؛ أي: هذه العادات، محاولات لإيجاد عالم آخر قد خلص من الهموم ووافق الخيال المحبوب، ولا بد للتخلص منها كي تحقق الشخصية الراقية، والتخلص منها يحتاج إلى تحليل نفسي ليس هنا مكانه، وقصارانا أن نُنبه على ضررها.

ويجب أن نُنبه القارئ إلى أن الضرر من هذه العادات السيئة ليس ناشئًا من الوصمة التي يصم بها الجمهور المعتاد لها، وإن كان هذا ليس بالأمر الهين، بل إنما نعني بالضرر ما يحسه الإنسان من قلق وهوان وضعة وتردد وخوف وجبن واتهام، فإن المدمن للخمر والزائغ الجنسي والمقامر؛ كل هؤلاء تتزعزع نفوسهم ولا يستقرون على نظام نفسي مرض، فهم في قلق ليس بينهم وبين نفوسهم سلام، وهذا القلق يفتت الشخصية ويحول دون سوائها فضلًا عن ترقيتها.

(٥) مركب النقص

عندما نرى رجلًا أحدب يجب أن نذكر أن هذه الحدبة التي تشوه جسمه وتحني ظهره وتغمس رأسه في جذعه قد رافقها في بعض سني حياته، أو لا تزال ترافقها حدبة نفسية، فهو يحس نقصًا عندما يحدث غريبًا، وهوانًا عندما تنظر إليه امرأة، ولسنا ننتظر منه أن يجرؤ على أن يكون خطيبًا، فهو يعيش مثقلًا بهذا العبء.

ولكن للأعباء أيضًا فوائدها؛ لأنها تُقوي العضلات وتُشعر بالمسئوليات، وهذا الأحدب الذي أحس «مركب النقص» واستشعر كارثته منذ الصغر، قد ينشأ وهو يتحدى القدر ويغالب ويجاهد حتى يتسامى بهذا المركب، ويفوز بالسيادة والتفوق، وعندئذ يكون مركب النقص قد نفعه وخدمه.

و«مركب النقص» هو العاهة الجسمية تشوه صاحبها، كالعين العوراء أو حدبة الظهر أو الأنف الأفطس أو العرج أو العمى أو القصر البالغ أو الطول المفرط أو الاستكراش أو الهزال. وهو سواد الزنجي يعيش بين البيض، وهو أيضًا العيب أو العاهة الاجتماعية يتسامع بها الناس، ويحمل وزرها الشاب في أب سكير أو أخت فاجرة أو إفلاس سابق أو فقر قد سبق الثراء، وهو حادثة معينة قد وقعت في أيام سلفت فخلفت في النفس هوانًا وحقدًا كأنها النار عند ذكرها، وهو خيبة مدرسية أو عادة سرية، وهو خجل أو خوف أو تردد أو تشاؤم أو كسل

أو اعتزال أو فقر أو جمود. وجميع هذه الحالات نتائج لعاهة، أو عيب خفي قد استقرت آثاره وخفيت أسبابه.

ومركب النقص ينشأ على غير وجدان، والناقص يستجيب له، في الأكثر، بالاستكانة، كالأعمى يرضى بما قُسِمَ له؛ لأنه يعجز عن مقاومة القدر، وفي الأقل بالمقاومة. ولكن المقاومة نوعان:

فهناك النوع الطفلي الذي لا يدل على نضج، كالحياء ينشأ من الخوف في الصغر ثم يتطور خجلًا في الكبر، والطفل بطبيعة بيئته من الكبار يعيش وهو يعاني «مركب النقص»؛ لأنه صغير عاجز يعيش بين من هم أكبر منه سنًا وأقدر قوة، فإذا أوهمناه العجز وصددناه عن السعي ومنعناه من تحمل المسئوليات نشأ بهذا المركب، فيعيش طفلًا ولو بلغ الخمسين، والطفلة عندما ترى شقيقها ممتازًا عليها بجسمه ومكانته الاجتماعية تنشأ بهذا المركب أيضًا، فإذا أكدنا هذا النقص بحقوق مدنية ودستورية وشخصية يمتاز بها الشاب على الفتاة انتهت الحال بالفتيات إلى اضمحلال شخصياتهن في المستقبل، كما هي الحال الآن في المرأة المصرية التي ليس لها مما نسميه «شخصية» سوى الظل، والمرأة المصرية تقاوم هذا النقص أحيانًا بطرق طفلية هي السيطرة على الزوج، أو القحة في الخلاف، وأحيانًا تثور عليه كما نرى في حفلة الزار التي تُعد علاجًا صبيانيًّا لأوان مختلفة من مركب النقص.

ولكن في معظم الأحيان تستكين المرأة لمكانتها المنحطة وتخضع، وتقنع بالطاعة للزوج وأمه وأبيه وأخيه، بل وابنه بعد ذلك، والزنوج في

الولايات المتحدة يستكينون ويرضون بأن يكونوا خدمًا في البيوت أو فلاحين في المزارع.

والمقاومة الطفلية لمركب النقص تعد نيوروزًا؛ أي: مرضًا نفسيًّا يحتاج للمعالجة، كالزوجة التي تعاند زوجها وتشاجر حماها، والشاب الذي يعتزل المجتمع (مقاومة سلبية)، والأديب الذي يعمد إلى الرجعية والجمود، والوقاحة في الحديث، والجري وراء النساء والتفاخر بزيارتهن يعد نقصًّا في الميل الجنسي؛ كل هذا وأمثاله يعد نيوروزًا يحتاج إلى العلاج؛ لأن الناقص هنا يعمد إلى أساليب الأطفال كي يتعوض من نقصه قوة موهومة.

ولكن الناقص إذا كان على ذكاء سوى أو متفوق، ونشأ على نقص خفي، فإنه يُقَوِّم هذا النقص بأساليب الذكاء، كالمرأة الشوهاء تحترف الحرفة السامية وتخدم المجتمع ولا تبالي الزواج، بل إن الزواج عندئذ يأتيها طوعًا وطمعًا في مكانتها الاجتماعية، وكالشاب ينشأ في بيئة عائلية سيئة إذا كان يرى أباه سكيرًا عربيدًا فلا يتجنب الخمر فقط، بل يستنكر حتى الدخان، وينشأ جادًّا حريصًا على وقته وماله، فلا تمضي السنوات حتى يكون قد حقق لنفسه التفوق على الأسوياء الذين نجوا من نقصه.

وخلاصة القول: إن مركب النقص من أعظم أدواء الشخصية، وهو يصيبنا بالخجل والخوف والتردد والتشاؤم والكسل والفتور والجمود والرجعية والقحة والعناد والكبرياء والإسراف، وكل هذه صفات تعوق

نمو الشخصية السوية، ونحن جميعًا ننشأ وفي كل منا شيء من هذا المركب يقل أو يكثر، ونحن نستجيب له:

(١) بالاستكانة التي نسميها أحيانًا قناعة، كالأعمى يرضى بما قُدِّر له، ويقنع بأن يعيش شحاذًا أو كالشحاذ.

(٢) بالمقاومة الطفلية؛ أي: أننا نقاوم النقص بأساليب الأطفال، وهذا هو النيوروز؛ أي: المرض النفسي، كالغني المحدث يقيم الوليمة المطهمة؛ كي ينفي تهمة الفقر السابق، أو الأعرج يمارس السرقة، أو الناقص في القوة التناسلية يُكثر من زيارة النساء.

(٣) بالمقاومة الرشيدة التي تدل على نضج ذهني، مثل روزفلت (الأول) نشأ ضعيف الجسم فما زال يكافح الضعف حتى صار فارسًا، إنه طوف في غابات أمريكا وإفريقيا وهو في العقد الثالث من عمره، أو مثل روزفلت (الثاني) ابتلي بمرض أقعده فما زال في مرانة يومية حتى برئ وصار رئيسًا للجمهورية، أو مثل الشاب قد أفسده فاسق وهو صبي، فما زالت هذه العاهة النفسية تبعثه على التفوق حتى صار على رأس الجماهير.

(٦) المباراة الاقتصادية

يتجاذب عصرنا الحاضر روحان؛ أحدهما: روح التعاون والاشتراك، والآخر: روح المباراة والتنازع. والشخصية تنمو في جو التعاون

والاشتراك، وهي تهزل وتضعف في جو المباراة والتنازع؛ لأن التعاون يتطلب صفات من السماحة والحب والرغبة والخير والقدرة على الإقناع والمصلحة، وسائر الصفات الاجتماعية البارة، أما المباراة فتدعو إلى الحسد والكراهية والأنانية والرغبة في الإيذاء، وهذه جميعها صفات لا تعين على تكوين الشخصية الاجتماعية، بل هي تنقصها وتفتتها.

ونحن نعيش في بيئة المباراة الاقتصادية ونتطلع إلى عصر التعاون، وفي كل منا رذائل هذه المباراة قليلة أو كثيرة تبعًا لظروفنا، فإن منا المحظوظ الذي ورث ماله أو حقق نجاحه، فلا نجد عليه أمارات الهم والكد والهرولة التي نجدها في فرد آخر لم يتحقق نجاحه الذي ينشد.

وترقية الشخصية تحتاج إلى تكاليف غير صغيرة من الوقت والمال والجهد، من البزة الحسنة إلى الرياضة التي نواظب عليها لتثقيف أجسامنا، إلى ثقافة الذهن، إلى توفير الوقت للاجتماع بالأصدقاء، إلى الاجتماعات المنزلية، إلى الخدمة الاجتماعية؛ إلى غير ذلك، وذلك المجهود في المباراة التي يطلبه الراغب في النجاح ويهرول ويتعجل ويبكر إلى عمله، ولا يتركه إلا متأخرًا في المساء لا يتيح الفرص التي تمكنه من ترقية شخصيته.

وصحيح أن الحرفة تكسبنا شخصية بما تلقيه علينا من مسئوليات، وبما تضطرنا إليه من تنظيم الوقت والمال، ولكن يجب ألا ترهقنا حرفتنا، وألا تستغرق كل وقتنا؛ لأننا نكون في هذه الحال بمثابة ذلك المسكين الذي كتب على قبره: «ولد إنسانًا ومات بقالًا»؛ لأنه قضى حياته في

البقالة لم يرقٍ شخصيته، ولم يستمتع بالدنيا، ولم يعرف منها غير البقالة؛ لأن النجاح الحق إنما هو النجاح في الحياة، وليس هو النجاح في البقالة أو المحاماة أو الهندسة أو الوظيفة كائنة ما كانت.

والمباراة الاقتصادية زيادة على أنها تستغرق معظم وقتنا، ولا تترك لنا منه غير القليل – أو لا تترك بتاتًا – لترقية شخصيتنا تغرس في كل منا صفات غير اجتماعية: فإن الرغبة في النجاح الاقتصادي قد تبعث على العزلة، وتجنب الحديث في الشئون العامة والبخل ونحو ذلك مما تهزل معه الشخصية هزالًا عظيمًا.

وفي ظروفنا الحاضرة حيث المباراة الاقتصادية تعم نظامنا الاجتماعي وتصبغ عقلياتنا يجب – مع تطلعنا إلى نظام تعاوني كالاشتراكية – ألا نترك هذه المباراة تستغرق وقتنا وجهدنا، بل علينا أن نتنبه إلى مساوئها ونعالجها، والعلاج الكلي هو الاشتراكية، ولكن العلاجات الجزئية يجب ألا تُهمل، مثال ذلك يجب على كل منا أن يتنبه إلى أن نجاحه يقتضيه اتزانًا من ترقية الذهن والجسم والمجتمع الذي يعيش فيه، وأن يدأب في هذه الترقية حتى تبرز شخصيته.

وعلى كل منا أن يبحث مقدار الاصطدام القائم بين ترقية شخصيته وبين مجهوده في المباراة الاقتصادية العامة؛ لأن لكل منا حالته الخاصة، وعلى قدر هذه الحالة يكون العلاج، فهناك من لا يتوافر له أي وقت لترقية شخصيته؛ لأنه مكدود مهموم ليله ونهاره في الكسب وجمع المال،

وقد تولاه الطمع المالي فلا يكاد يدري شيئًا آخر في الدنيا يستحق أي مجهود.

ومثل هذا الرجل في سيكوز يحتاج إلى العلاج، والفرق بينه وبين المجنون الذي يتوهم أنه ملك متوج أو غني يملك الملايين هو فرق في الدرجة فقط، وليس في النوع، وكلهم غير نافع للمجتمع، ولكن إلى جنب هذا السيكوزي آخرين دونه في الدرجة، وهم يحتاجون إلى التنبيه، بل يحتاجون إلى مرانة جديدة لترقية شخصياتهم.

(٧) شخصية المرأة

حسبنا ما ذكرنا عن الحجاب وضرره الفادح بالشخصية المصرية سواء للمرأة أو للرجل، ولكن ما دمنا قد خصصنا فصلًا لشخصية المرأة فليس مفر من أن نقول: إن الحجاب يئد الشخصية في المرأة، وإنه يغرس في نفسها اعتقادًا مستقرًّا راسخًا بأنها دون الرجل، والمرأة التي قضت فترة من عمرها في الحجاب ثم سفرت، لا يمكن أن تتخلص من الآثار السابقة للحجاب، وإذا كان هناك فرق عظيم في الشخصية بين الشاب المصري والشاب الأوروبي؛ فإن هذا الفرق أعظم جدًّا بين الفتاة أو السيدة المصرية وبين الفتاة أو السيدة الأوروبية بسبب الحجاب.

والمرأة على وجه عام – سواء في أوروبا أو في مصر – تنشأ وبها «مركب نقص»؛ لأن الطبيعة قد خصت أخاها بزيادة في الأعضاء، وخصتها هي بنقص، فهي منذ الطفولة تحس نقصًا، كما أن العادة

الشهرية عندها تحملها على الإحساس بالخجل، وبأن لها حياة سرية لا يعرفها الرجال، وهذا يبعثها على المواربة والتحفظ، وفي مصر تزيد المكانة الاجتماعية قيمة أخيها؛ لأنه هو الذي يرث ضعفي ميراثها، وهو المختلط بالمجتمع الذي يتكسب بالحرفة، وهي مقيدة بالدار تعيش بما يكد لها أخ أو أب أو زوج، وقد أوشكنا في مصر أن نتخلص من الحجاب الذي لم تعد تمارسه سوى العائلات المتأخرة، ولكن الحجاب الروحي لا يزال باقيًا، فالمرأة أو الفتاة في بعض أوساطنا قد نزعت البرقع عن وجهها، وقد صارت تفتح الباب بنفسها للضيف، وتلقاه سافرة، وقد تقعد مع ضيوف زوجها من الجنسين، ولكن الحجاب الروحي سليل الحجاب المادي لا يزال باقيًا، في صمتها حين تقعد كأنها تلميذة في فصل أمام معلم قاس مكتوفة اليدين تجيب في إيجاز، ولا تسأل ولا تناقش، وهي لا تُبالي للسياسة العامة عالمية أو وطنية، وهي لا تتحمل إلا أقل المسئوليات مما يسخر بها زوجها عليها.

والزوجية، ثم الأمومة، كلتاهما تُحمِّل المرأة مسئوليات جديرة بأن تُكوِّن لها شخصية محترمة، وهذا هو ما نرى في الزوجة الفلاحة وزوجة العامل، أما الزوجة «المخدرة» في الطبقتين المتوسطة والعالية فلا تتحمل هذه المسئوليات، ولا تتكون لها بها شخصية؛ لأن حبسة البيت من ناحية، وما تضطر إليه الزوجة من اعتزال كأنها راهبة ثم وفرة الخدم؛ كل هذا يجعل ميزتي الزوجية والأمومة غير مفيدتين في تكوين الشخصية الإفادة المنشودة.

ومع أننا نغبط المرأة الأوروبية على شخصيتها، فإن الأوروبيين أنفسهم لفرط احترامهم لها كثيرًا ما دعوا إلى زيادة استقلالها، ودراسة أبسن عن «بيت العروس» تدل القارئ على هذا النظر الذي يعده الشرقي كفرًا لقداسة الزوجية واحترام العائلة، ويجب علينا أن نذكر هذا الشرقي بأن لفظة «عائلة» هي لفظة حديثة لم تذكر قط في معجم عربي، وأننا وضعناها لكي نترجم المعنى الأوروبي للفظة «فاميليا» وهو معنى اجتماعي لم تعرفه الأمم الشرقية، ولذلك لم تسك له لفظته. نقول: إن الأوربيين مع هذا الاحترام للمرأة والعائلة ما زالوا يدعون دعوة الحرية للمرأة، ونجد نحن إسرافًا في هذه الدعوة للحرية عندما نقرأ أبسن ونجد أنه يدعو الزوجة إلى ترك زوجها؛ لأنه كان ينظر إليها نظرة الأطفال للعروس يلعبون بها ويلهون، فهذا الزوج يلعب ويلهو بزوجته، ويعاملها كما لو كانت طفلة غير مسئولة، كما هو الشأن عند كثير من الأزواج، فإذا عرفت هي هذه النظرة المهينة من زوجها لها تركت الدار وما فيها من زوج وأولاد، وخرجت هائمة على وجهها تريد أن تنفرد وتعيش وتعمل وتجد وتكون لها شخصية مستقلة ناشطة.

وأكثر إسرافًا في هذا النظر للمرأة المؤلف الفرنسي «فكتور ماجريت» الذي ألف قصة «الفتاة الغلامية» التي تسلك في الدنيا سلوك الشبان، تمارس كل ما يمارسون من أعمال، بل ترتكب زلاتهم؛ لأنها تريد أن تعيش مستقلة لها قياسها الأخلاقي الخاص الذي تضعه وفق ذهنها وآمالها في الرقي الشخصي.

هذا هو نظر أديبين عظيمين من أدباء أوروبا يريان رؤيا المرأة الجديدة تعيش لترقية شخصيتها قبل كل شيء، وليس لخدمة زوجها أو أولادها، وإذا كان في هذا النظر إسراف فإننا يجب أن نضع إزاءه حال المرأة المصرية؛ حال الضعة والهوان والانحطاط الشرقي، حتى إن لفظة «عائلة» التي أوجدناها في مجتمعنا المصري لا تزال في كثير من أوساط هذا المجتمع اسمًا على غير مسمى؛ لأن الزوجة لم تتخلص من تقاليد «الحجاب الروحي» فهي خاضعة صامتة تعيش مع حماتها، وتقبل سيادة هذه الحماة عليها زيادة على سيادة الزوج، وليس الزواج عندنا مشاركة متساوية الحقوق بين الزوجين؛ إذ هو سيادة أحدهما على الآخر، فالبيئة المنزلية في كثير من بيوتنا لا تساعد المرأة المصرية على تكوين شخصيتها؛ لأن ظروفها لا تعينها على الاستقلال وتحمل المسئوليات، وشعورها بالمساواة مع زوجها، وبيئتنا الاجتماعية كذلك تردها على الدوام إلى الخلف وتوهمها العجز؛ لأنها محرومة الحقوق المدنية والدستورية الكثيرة؛ حتى إنها لتعد الاهتمام بشئون وطنها كأنه خارج عن واجباتها، وأنه واجب مقصور على الرجال دونها.

ولا علاج لهذه الحال إلا بإصلاح العائلة والمجتمع بمنح المرأة الحقوق التي تتساوى بها مع الرجل، وعندئذ يصبح الكلام عن شخصية المرأة مجديًا؛ لأنها في حالتها الحاضرة تكون معدومة الشخصية.

(٨) رواسب الطفولة

لكل طور من أطوار العمر أخلاق وعادات خاصة ينتفع بها الإنسان في الطور المعين، ولكنه يحتاج إلى أن ينسلخ منها في الطور التالي، فنحن أطفال ثم صبيان ثم شبان ثم شيوخ، فيجب أن يمحو صبانا طفولتنا، وأن تمحو شيخوختنا شبابنا، والشاب الذي يسلك سلوك الصبيان، بل الصبي الذي يتدلل كأنه طفل رضيع أو فطيم، والشيخ الذي يبدو كأنه شاب؛ كل هؤلاء يعيشون في غير أطوارهم، وهم سخرية الجمهور، وكلنا يعرف العجوز المبهرجة المعطرة وكأنها مومياء مزخرفة محنطة نحتقرها، بل أحيانًا نشمئز منها.

وليس الضرر هنا مقصورًا على احتقار الجمهور للشخص الذي يعيش ببقايا الطور السابق، فإن هناك ضررًا أفدح وهو أن هذا الشخص يخدع نفسه، فلا يستغل الطور الذي يعيش فيه فإذا كان كهلًا لم يستمتع بميزات الكهولة، بل جاهد يحاول استبقاء الشباب الماضي، والإنسان بطبيعته محافظ يكره التغير، فإذا تعود عادات الشاب واستقر عليها عشر سنوات أو أكثر رفض تغييرها، وهو محتاج إلى أن يتنبه إلى ضرورة التغيير أو إلى أن ينبهه صديق أو زوجة أو قريب.

ومن عوائق الشخصية أن يصل الإنسان إلى سن الشباب وهو لا يزال متمسكًا بشيء من طفولته حتى ولو بلغ السبعين من العمر؛ لأن ما يغرس في طفولتنا من أخلاق وعادات قلما نستطيع التخلص منه إلا إذا كان فاضحًا، فنحن مثلًا نستغني عن البنطلون القصير، ولكن من منا

استطاع أن يستغني عن ألفاظ البذاء التي تعلمناها في الصغر، وخاصة حين تثار عواطفه، ولا يترك لعقله الوقت الكافي للتدبر؟

والطفل بطبيعته أناني نهم، يشره إلى الحلويات ويأكل في لهفة كأنه يخشى أن يعم القحط البلاد، ونحن نضحك من الأطفال حين نرى منهم هذا السلوك، بل ربما نستظرفه، ولكن الشاب النهم الذي يخطف الطبق ويبلع دون أن يمضغ، أو الذي يرتاد المحال يأكل أوان الفطير والكعك مثل هذا الشاب لا يطاق، وبعض الشباب يقعد إليك فيصف لك «أكلة» أو هو يضع تخطيطات لوليمة مطهمة، بل أحيانًا يمتد به الغرام بالطعام إلى أن يدخل المطبخ ويهيئ الطبيخ بنفسه، ويتحمل في ذلك احتقار زوجته.

وهذا النَّهم إلى الطعام، والشَّره إلى الحلويات، هما بعض بقايا الطفولة التي لم يفطم منها الشاب؛ لأنه لم يجد الكفاية التي كان يستحقها أيام طفولته، وهو جدير بأن يعالج نفسه منها إذا شاء أن تكون له شخصية الشاب، فليس منا أحد يحتقر الطعام، ولكن يجب ألا ندأب في الحديث عنه كأنه ليس لنا هم سوى بطوننا.

ومن بقايا الطفولة الاستسلام للعواطف، كالغضب الهائج، والبكاء السريع، ونحوهما، فإن الشخصية السوية تحتاج إلى أن نضبط أنفسنا وقت الانفعالات، وأن يسود العقل على العاطفة، ونحن لا نُبالي الطفل يهيج ويضرب الأرض بقدميه؛ لأنه جائع أو لأن أمه لم تعطه قرشًا، ولكنا لا نطيق شابًّا يسلك هذا السلوك الفج في تحقيق أغراضه.

انظر مثلًا إلى بقايا الأخلاق الطفلية في الزوجين، فهنا زوج يجعل زوجته تنفجر من الغيظ والأسف؛ لأنه طفل كبير يقول لها عندما تطلب منه أمرًا: «انتظري حتى أسأل أمي».

أو هنا زوجة يطلب منها زوجها طلبًا حميمًا فترفض، وتلح في الرفض، كأنها طفلة تبخل بقبلة لوالدها إلا بعد أن يعطيها قرشًا.

وحين يختلف الزوجان؛ أي: حين يكون أحدهما ناضج الشخصية قد تخلص من بقايا الطفولة، وبقي الآخر فجًّا كأنه طفل كبير؛ حين تكون الحال كذلك يشقى كلاهما بالآخر.

وبقايا الطفولة تُرى في كثير من نسائنا، حتى إن مجتمعنا لا يستنكر أن تتدلل المرأة كما يتدلل الطفل، ولذلك نرى الزوجة تبكي لأقل استفزاز، وتحتاج إلى مصالحات متكررة؛ لأنها سريعة الغضب، وهذا هو النظر الشرقي المنحط للمرأة، وهو نظر يجب أن نتخلص منه، وأن نحاول تكوين الشخصية النسوية للمرأة المصرية بتعويدها عادات الجد والنظر السديد.

والشاب الذي يزهى ببزته الأنيقة، والذي يتحدث عن نفسه ويفاخر بمآثره، هو شاب قد استبقى الكثير من عادات الطفولة، والشاب الذي «ما يحملش هم»؛ لأنه لم يتعود تحمل المسئوليات، والشاب الذي يتزوج، ولكنه لا يزال منضويًا إلى أبويه؛ كل هؤلاء ليست لهم الشخصية الناضجة.

والشخصية الناضجة للشاب أو الفتاة تقتضي أن تكظم العواطف فلا تظهر عارية، فالطفل حين يجوع يبدي عاطفة الجوع عارية بل صارخة، وهو يشتهي الحلويات ويحب أن يملأ بطنه بها، ولكن الشاب الناضج يستبدل بالعاطفة المجردة للطعام ميلًا عامًّا للغذاء، ولذلك لا يصرخ من أجل الحلوى أو غيرها، وهذا الميل قد اكتسبه من المجتمع.

والحيوان يشتهي الأنثى، وكذلك الشاب المتوحش، كلاهما يُبدي العاطفة الجنسية عارية، ولكن الشاب المتمدين يكظم هذه العاطفة، ويُبدي ميلًا عامًّا للحب، وهذا الميل مؤلف من العاطفة البيولوجية والاعتبارات الاجتماعية والثقافية.

والطفل مثل الحيوان يُبدي عاطفة الغضب في ثورة هائجة، ولكن الشاب المتمدين يُبدي تماسكًا وتحفظًا يرجعان إلى أنه قد استبدل بالعاطفة ميلًا اجتماعيًا نحو خصمه، وهذا الميل مؤلف من الغضب العاطفي مع التماسك الاجتماعي.

والشخصية السوية تمتاز بأن الميل الاجتماعي يأخذ مكان العواطف البيولوجية، ومن هنا ثباتها أو اتزانها، فإن صاحب الشخصية الممتازة ثابت لا يتزعزع؛ لأن عواطف الطفولة عنده لم تعد لها تلك القدرة على الشبوب القديم؛ إذ هي اندغمت في ميول اجتماعية، ولا يمكن أن نحصل على شخصية عالية إلا بقدر كظمنا لعواطف الطفولة، واستبدالنا بها الميول الاجتماعية التي تجعل هذه العواطف خادمة لنا بدلًا من أن تكون سيدة.

(٩) مجتمعنا المصري يعوق الشخصية

يمتاز الشاب الأوروبي عن الشاب المصري بشخصيته اللبقة أو البارزة، فهو لا يخجل ولا يتردد ولا يخاف، بل يستقل في عمله ويجابه خصومه، ويتحدى القدر في كثير من الظروف التي نجد فيها الشاب المصري على خلاف أو على نقيض ذلك، والأصل في هذا الامتياز أن الشاب الأوروبي يعيش في مجتمع حر ديمقراطي مختلط مثقف.

المجتمع الأوروبي حر من حيث إن الجمهور في أوروبا يؤمن بالحرية ويدافع عنها، فلكل فرد فيه الحق في أن يكون جمهوريًّا أو ملوكيًّا أو اشتراكيًّا أو ملحدًا أو مسيحيًّا، ولو أن يدافع عن أية قضية اجتماعية دون أن يخشى غير المعارضة النزيهة، ومثل هذه الحرية تتيح لكل فرد أن يُنمي ملكاته ويُمرِّن ذكاءه ويستخدم إرادته، وهذا المجتمع له مؤسسات ديمقراطية تُشعر كل فرد بمسئوليته العامة للمجتمع، بل هي تكبره إذا كان كبيرًا، فالشاب الذي نشأ في الولايات المتحدة وتعلم منذ صباه أنه يمكنه أن يكون رئيسًا للجمهورية هو غير الشاب الشرقي الذي نشأ مثلًا في الهند، وحُكِمَ عليه بأن يكون منبوذًا، أو هو يرى المهراجا المستبد وعلى رأسه عشرة أرطال من الذهب والماس، ويقال له: إن هذا المهراجا يحكم عليه بالوراثة، الأول يعيش ونفسه في طموح وشخصيته في نمو، والآخر يعيش وهو منكسر القلب يائس ضامر الشخصية أو بلا شخصية.

وقد سبق أن وضحنا ضرر الحجاب للمرأة، ولكن مهما كررنا في إيضاح هذا الضرر فإننا لن نُبالغ، فنحن نفصل في المدرسة بين الصبي والبنت فينشأ كل منهما مربوك الحركة في حضرة الآخر وكأن به خبالًا؛ لأنه لم يعتد مجالسته، وهذا الخبال يصيب شخصيته سواء أكان رجلًا أم امرأة مدى حياته، وهو يسيء له أيام الخطبة قبل الزواج، ويخطئ التقدير في اختيار زوجته، أو بالعكس، لهذا السبب نفسه؛ أي: لأنه لم يتعرف قبل ذلك إلى المرأة في صباها وشبابها، ثم هو حتى بعد الزواج، لا يعرف كيف يُعاملها المعاملة الإنسانية القائمة على الشرف والحب والاحترام والكياسة والرشاقة؛ لأن الفصل بين الجنسين منذ الصغر حال بينه وبين هذه المرانة، ولذلك فإن كثيرًا من الخيبة في الزواج يعود إلى هذا الفصل بين الجنسين، ويجب ألا ننسى أن للرجل شخصية جنسية تُعجب بها المرأة وتحترمها، وهذه الشخصية لا تتكون إلا بمرانة سابقة يجدها الأوروبي ويحرمها المصري.

فمجتمعنا – للفصل بين الجنسين – يعوق نمو الشخصية، وهذا الفصل قائم في البيت والمدرسة والمجتمع، وصحيح أنه قد خف بعض الشيء في أوساطنا الراقية وعلى قدر خفته هنا نجد الشخصية الراقية، وإذا كان الحجاب قد محا شخصية المرأة محوًا يكاد يكون تامًّا، فإن الفصل بين الجنسين قد عاق تكوُّن الشخصية عند الرجل، وأفسد العلاقة بين الجنسين، وفتح أبوابًا للدمار في الزواج.

والمجتمع الأوروبي يُرَقِّي الشخصية – زيادة على ما فيه من حرية وديمقراطية واختلاط جنسي – بما يُتيح لكل فرد من فرص الثقافة المتعددة التي لا يحصل شبابنا إلا على القليل منها، والثقافة المتوسطة ضرورية لكل شخصية، والأوروبيون يتعلمون بمجتمعهم أكثر جدًّا مما يتعلمون بالمدارس والجامعات، بل إن منهم العلماء تخرجوا من المجتمع، وذلك لرقي الصحف ووفرة الكتب والمتاحف والمعارض، وما في الحياة من عبر دستورية واجتماعية وإصلاحية، فالشاب الأوروبي لم تُجرح كرامة أمته بيوم أسود مثل ذلك اليوم الذي تحالفت فيه القيصرية الفاتكة والاستبداد المتهتك؛ حين جمع من يدعى ريور باشا البرلمان في الصباح، ثم طرد أعضاءه في المساء كأن الأمة المصرية عزبة من ممتلكاته، ومثل هذا الحادث المهين ما كان ليحدث لو أنه كانت في الأمة المصرية شخصيات محترمة تبعث على الهيبة.

وخلاصة القول: إن مجتمعنا المصري قد أفسدته التقاليد الشرقية وطغيان القيصريين الأجانب والمستبدين المصريين، وقد حُرِمَ المؤسسات الديمقراطية فلم تستفض فيه الحرية، أو بالأحرى لم تجد فيه الحرية المجال لأن تتكشف وتنمو، وهذا إلى الكارثة الكبرى، كارثة الحجاب التي جعلت كثيرًا حتى من الأمم الشرقية يفضلنا في الذوق والكياسة وشرف العاطفة الجنسية، وجميع هذه الظروف تجعل تكوُّن الشخصية وترقيتها شاقين، ولكن القارئ الذي يدري هذه الظروف يستطيع أن يقدر صعوباته، وأن يعالجها بقدر ما تسمح به ظروفه، وهذه هي غايتنا من ذكرها.

(١٠) تلخيص

في الفصول الثمانية السابقة شرحنا العوائق التي تعوق تكوُّن الشخصية ونموها وترقيتها، ونحتاج إلى تلخيص ما شرحنا لكي يذكر القارئ حين يحاول ترقية شخصيته، وهذه العوائق جميعها بمثابة الأمراض تصيب الفرد أو المجتمع، ولا بد أن القارئ قد لمح في جميع الفصول السابقة أن أساس الشخصية هو المسئولية، وأن المسئولية تحتاج إلى الاختلاط الاجتماعي، وأن المجتمع الحسن لنمو الشخصيات السامية هو المجتمع الحر الديمقراطي؛ لأن الحرية والديمقراطية كلتاهما تؤدي إلى المسئولية.

وفي هذا الضوء نقول: إن عوائق الشخصية كما نستطيع مشاهدتها في مجتمعنا هي:

(١) التربية المنزلية التي تعتمد إما على القسر والإجبار، ومطالبة الأطفال بالطاعة العمياء، وإما على التدليل الذي يحرم الطفل حرية العمل، والطفل في الحالتين يُحرم حرية العمل ومسئوليته، فلا تتكون له شخصية.

(٢) وحجاب المرأة هو وأد يكاد يكون تامًّا لشخصية المرأة؛ لأنه يحرمها الاختلاط الاجتماعي ومسئولياته، وهذا زيادة على أنه يؤذي الرجال الذين تربيهم هذه المرأة المحجبة، كما أن الحجاب ينقص قيمة المجتمع في التربية؛ لأن هذا المجتمع نفسه ناقص لوجود الحجاب.

(٣) والفصل بين الجنسين ينساق مع الحجاب في الضرر، وآثاره واضحة في ضعف الشخصية الجنسية في الشاب والفتاة؛ إذ إن الفصل بينهما قد

حرمهما مبادئ المعاملة المهذبة الرشيقة والتكاليف المتعددة التي يتطلبها الاختلاط.

(٤) ثم هناك عادات خاصة يقع فيها الشاب، ومن المحال أو من الصعب أن يكون له شخصية معها، فالمدن الخمر أو القمار تنهار شخصيته لهذا الإدمان، وقد يبدأ الشاب عادة التدخين لكي يُكبِّر شخصيته، ولكنه حين يدمن هذه العادة يخسر كثيرًا من شخصيته لهذا الإدمان نفسه.

(٥) و«مركب النقص» من أعظم أمراض الشخصية، وهو أن ينشأ الطفل بعاهة أو عيب جسمي أو عائلي يبعث فيه الخوف أو القلق أو الخجل أو التردد، وتثبت فيه هذه العواطف في طفولته حين لا تكون له قدرة من ذهنه على التعقل والمقاومة الرزينة، ولا بد للشاب من أن يتعرف إلى مركبات النقص في نفسه، ويعالجها؛ لكي تستقيم له شخصية خالصة من هذه العواطف السيئة.

(٦) وفي نظامنا الاقتصادي الذي تعمه المباراة تقل الفرص لترقيه الشخصية التي ينميها التعاون والاشتراك، ويعطلها الحسد والانفراد، وأحيانًا يندفع أحدنا إلى جمع المال بقوة هذه المباراة، حتى يعيش كل لحظة من عمره وهو في هذا الجمع فلا يرقى ذهنه ولا ينمي شخصيته، وهذا النظام عائق كبير لتكوين الشخصيات السامية.

(٧) والمرأة على وجه عام لا تجد الفرص التي يجدها الشاب لتكوين الشخصية وترقيتها، ولكنها في مصر على وجه خاص تجد كل الظروف

العائلية والزوجية والاجتماعية والدستورية والمدنية لوأد شخصيتها، وهذا الوأد يبدأ بالحجاب – المادي والروحي – وينتهي بحرمانها حقوقًا مدنية ودستورية، بل ومدرسية، يتمتع بها الشاب دونها.

(٨) وكثيرًا ما يحدث أن يبلغ أحدنا طور الشباب، ولكنه مع ذلك لم يكن قد تخلص من أخلاق الطفولة، وهذه الأخلاق بما فيها من كراهة لتحمل المسئوليات والاندفاع وراء العواطف تعطل نمو الشخصية.

(٩) ومجتمعنا المصري لا يزال إلى حد كبير مجتمعًا شرقيًّا يخلو من المؤسسات الديمقراطية، وهو بهذا وذاك يعوق نمو الشخصية؛ لأن الحرية والديمقراطية كلتاهما تؤدي إلى المسئولية، وهي – كما قلنا – فيتامين الشخصية.

الفصل الثالث

درجات الشخصية

(١) اللباس والشخصية.

(٢) اللغة والصوت.

(٣) الانتقال من الأنانية إلى الغيرية.

(٤) الخدمة الخاصة.

(٥) الخدمة العامة.

(٦) المهنة.

(٧) العائلة.

(٨) النمو.

(٩) المثليات والأهداف.

(١٠) تلخيص.

للقامة؛ من طول أو قصر، وضخامة أو نحافة، ولسحنة الوجه؛ من غلاظة أو ظرف، قيمة في الشخصية، ولكن هذه القيمة هي ثمرة الغدد الصماء والنظام الفسيولوجي، ونحن عاجزون عن معالجتها، ولذلك لا يمكننا إلا أن نشير إلى هذه الخواص إشارة موجزة، فنحن نتأثر بالرجل الضخم المديد القامة أكثر مما نتأثر بضده القصير النحيف، ويبقى هذا التأثير حتى نستمع إلى حديثهما فنميز ونغير رأينا أو لا نغيره.

وللملابس بعض هذا التأثير، وهي لهذا السبب تُعد أول درجات الشخصية، أو أنها بمثابة حروف الهجاء للمتعلمين، ولهذا السبب لا نطلبها فيمن نعرف أنهم تقدموا وارتقوا، فلا يخطر ببالنا مثلًا أن نسأل عن نابليون ماذا كان يلبس إذا قيل لنا إنه كان يمتاز بشخصية عظيمة؛ لأننا ننتظر من شخصيته درجات أعلى من الملابس، ولا نُبالي أن يلبس غاندي شملة من القطن الجافي؛ لأنه قد غرس في أذهاننا صورة راقية لشخصيته لا تحتاج إلى الملابس.

لكننا لسنا جميعًا غاندي أو نابليون، فنحن نحتاج – لكي نسلك السلوك الاجتماعي الحسن، ونؤثر التأثير الاجتماعي الفعال – إلى أن نُعنَى بملابسنا، ولا يمكننا أن نتخيل آنسة جميلة أو ظريفة إلا إذا قَرَنَّا هذا الخيال إلى ملابس أنيقة ظريفة، وليس من النوافل أن نطلب من الشاب مدة خطبته قبيل الزواج أن يُعنَى بملابسه وأناقته لكي ينال رضى وإعجاب خطيبته.

والمجتمع لا يُهمل شأن الملابس، وعناية المرأة بملابسها التي قد تبلغ حد الإسراف تدل على أنها تعرف قيمتها في تكبير شخصيتها، وهي لا تقل عن عنايتها بتجميل وجهها وتزيين شعرها وتحسين قامتها، ونحن نخص العسكريين بشكة معينة يتميز بها الضابط من الجندي، ويتميز بها كبار الضباط من صغارهم، كما أن الطبقة العالية في كل أمة قد عينت ملابس خاصة لأوقات النهار والليل، ولاجتماع السباق أو اجتماع المسرح، وفي هذا كله إسراف لا شك فيه، ولكنه يدلنا على القيمة السيكلوجية التي للباس في تكوين الشخصية، وكلنا يعرف إعجاب المرأة بالشكة الحربية التي تُكَبِّر في نظرها شخصية الشاب.

وقد قال شكسبير: «الملابس تصنع الإنسان.» وهذا يدل على أن أثر الملابس من ناحية الشخصية لا يقتصر على الآخرين الذين ينظرون إلى الشاب أو الفتاة في ملابس معينة، بل هو يؤثر في هذا الشاب أو هذه الفتاة؛ أي: أن الملابس تؤثر في شخصية لابسها وتغير نفسيته بتغيرها، فنحن نحس الهوان والضعة إذا كانت ملابسنا رثة بالية، ونحس بالكرامة والكبرياء إذا كنا في ملابس لائقة، وفي مصر كثير من الزوجات اللائي بدأن الحياة الزوجية بالملاءة، ثم اتخذن القبعة فتغيرت شخصياتهن بتأثير الملابس الجديدة، فمن قبل كن يتبخترن في المشي، ويسرن ببطء سير الشرقيات المتحجبات، لهن شعور عميق بميزاتهن الجنسية، فلما اتخذن القبعة أسرعت خطاهن واعتدلت قاماتهن، ونقص الشعور بالميزات الجنسية وعمهن جد في النظر والحركة.

وهذا هو بعض التأثير النفسي الذي يُحدثه اللباس، ولو أن شبابنا اتخذوا القبعة كما فعلت آنساتنا لتغيرت نفسية الأمة؛ لأنها كانت عندئذ تحس أنها غربية لها إقدام الغربيين وابتكارهم وجرأتهم واستقلالهم، بدلًا من هذا الطربوش الذي يوهمنا الانفصال من أوروبا وإننا شرقيون؛ أي: صوفيون غيبيون متواكلون بسيادة أوروبا علينا.

والشيخ المعمم حين ينقلب أفنديًّا ببنطلون وطربوش تتغير شخصيته، ويحس هو – كما يحس غيره – هذا التغيير في نظراته ومشيته وقعدته، بل إن تطلعه وطموحه وبرنامجه الشخصي والاجتماعي، كل هذا يتغير، فتتغير بذلك شخصيته باستبدال الملابس الأوروبية بالملابس الشرقية.

ويستطيع الرجل والمرأة اللذان تقدم رقيهما ورسخت لهما مكانة اجتماعية عالية أن يستغنيا عن الصغائر التي يحتاجا إليها باللباس المتقن، ولكن جمهور الناس في حاجة إلى العناية بالملابس، ويجب أن نذكر الجلافة التي تشاهد في الفلاح المتمدن، أو ذلك المزارع الذي يعيش في الريف في ملابس قروية ثم يزور القاهرة فيسيء في شراء ملابسه الأوروبية، ويجب أن نذكر ملابس المحدث الذي يندفع بقوة مركب النقص – وهو ثراءه بعد فقره – إلى المبالغة، من السلسلة الذهبية الغليظة، إلى الحذاء الثقيل، إلى سائر القطع الجديدة – جديدة جدًّا – التي يكسو بها جسمه فيبدو كأنه قد خرج قشيبًا من مكان الخياط للحظته.

ويجب أن نذكر خطأ الشاب الذي يقابل رؤساءه وقد نبتت أعجاز لحيته، ويجب أن نذكر الرحالة ستانلي الذي قطع مئات الأميال في غابات

إفريقيا وجبالها بين الزنوج، وقضى جملة سنوات وهو مع ذلك لا يهمل حلق لحيته كل صباح، مما يدل على أنه كان يحرص على أن تبقى شخصيته؛ إذ هو يحافظ على عادات هذه الشخصية، ويجب أن نذكر كيف يتغير شعور المتهم بكرامته حين تنزع ملابسه المدنية ويلبس ملابس السجن، فإن شخصيته تتزعزع لهذا التغير فيذهب تماسكه، ويعترف بما لم يكن ينوي الاعتراف به.

(٢) اللغة والصوت

قامة الإنسان وسحنته وبزته، ثم لغته وصوته؛ هذه هي أدنى مراتب الشخصية، كما نقول: إن حروف الهجاء هي أدنى مراتب الثقافة، ولكنها مع ذلك ضرورية، ونحن نرتئي الرأي الأول عن الشخص الذي نلتقي به من هيئته العامة ثم لغته، وأما بعد ذلك من مراتب الشخصية فيحتاج إلى الناقد المميز، ولكن الشاب (أو الفتاة) الذي يُهمل هيئته ولغته يجعل نفسه عرضة للخيبة في الامتحان الأول، وقد لا تتحاح له الفرصة لأن يبرز السمات العالية لشخصيته بعد ذلك.

ولو أتيح لأحدنا أن يرى صورته السينمائية وهو يتكلم ويمشي ويومئ، كما لو أتيح له أن يسمع صوته من قرص فنوغرافي، لعرف كثيرًا مما يجب أن يعرف عن الكتلة المادية لشخصيته، فإنه يرى رأسه في غير موضعه الذي يجب أن يستقيم فيه، بل هو قد يرى غمزة خفية في ساقه لم يكن يظن وجودها من قبل، زد على هذا مواضع كثيرة للنقد في بزته،

فإذا سمع صوته لأول مرة رأى عجبًا، لم يكن يظن قط أن به عنة أو أن به هذه الخشونة، وليس من التكاليف الكبيرة أن يسجل كل منا قرصًا فنوغرافيًا لصوته حتى يلتفت بعد ذلك إلى إصلاح أخطائه الصوتية، كما أنه ليس من التكاليف الباهظة أن يُسجل لنفسه شريطًا سينمائيًّا؛ لكي يصحح أخطائه في الحركة والمشي، وهذا زيادة على أن لكل من هذين العملين قيمته التاريخية في العائلة؛ لأنه تذكرة في الغيبة كما هو بعد الوفاة، وكل منهما أو كلاهما يجب أن يأخذ مكان الصورة الفتوغرافية.

وأصوات الناس تختلف؛ منها الأجش ومنها العميق، كما أن منها المسلوخ أو الأغن، كما أن لكل منا طريقة في الضحك، ولبعضنا عادات أو رذائل في نفخ أنفه أو حتى بلع ريقه، ونقل هذه الصورة من الذاتية إلى الموضوعية السينمائية أو الفنوغرافية يفيد كثيرًا.

ونحن نختلف في نطق الكلمات من حيث الإمالة أو الترخيم أو غير ذلك، وهذا الاختلاف يبرز عندما نتحدث إلى أحد السوريين أو العراقيين أو المراكشيين، فإنه ينطق الكلمات التي ننطق بها، ولكن بغتة أو إمالة أو ترخيم على غير ما ألفنا، بحيث قد لا نفهم منه، وهذه الفروق تبدو – في صورة أقل بروزًا –بيننا وبين أبناء وطننا، فإن للريفي كما للصعيدي، بل لسكان الشمال في الدلتا كما لسكان بعض المدن، لهجة خاصة ننكرها أحيانًا، وصاحبها يحاول أن يتخلص منها؛ لأنه يحس أنها تضعف شخصيته.

وهناك من يمضغ الكلام أو يأكل الحروف، فإذا وصل إلى آخر الجملة قطع الكلمة الأخيرة أو أخرجها تلميحًا بلا تصريح، وهذا إلى رفع الصوت أو خفضه في غير موضعه، وإلى عبوس أو غضب لا يقتضيه الحديث، ومساوئ الإلقاء كثيرة يمكن كلا منا أن يعرفها إذا هو تعمد النقد الذاتي، أو طلب هذا النقد من صديق، والتاجر والمحامي والطبيب وربة البيت الاجتماعية، بل كل فرد يضطره عمله إلى الاحتكاك بالآخرين، في حاجة إلى إصلاح صوته وإبراز كلماته في صيغة مقبولة.

والحديث العذب يحتاج أيضًا إلى ترتيب منطقي، وإلى اختيار حسن للألفاظ، وقد كان أسلافنا يقولون: «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.» ولكن السكوت يعد ستارًا يخفي عيوب الشخصية، وكل من يمتاز بشخصية إيجابية يحتاج إلى المهارة في الحديث، وحديث الإنسان يكشف عن الطبقة والبيئة اللتين ينتمي إليهما، كما يكشف عن درجة الثقافة التي حصل عليها، فلسنا ننتظر من الفلاح حديثًا عن السياسة العالمية، ولا من الطبيب حديثًا عن الزراعة، ولكنا ننتظر ممن يطمح إلى شخصية راقية أن يكون ملمًا بألوان التفكير العصري، قد درس مشكلات المجتمع إلى حد ما، وكثيرًا ما نحس ضآلة في شخصية الزوجة المصرية حين تقصر حديثها مع ضيفاتها على الخدم والأولاد والقيل والقال عن العائلات المجاورة، كما نحس انحطاطًا في بعض البيئات حين نجد الإغراق في النكات الجنسية.

وربة البيت السخية التي تريد إبراز شخصيتها في المجتمع، لن يجديها سخاؤها في الطعام والشراب وأناقة الآنية والولائم المطهمة إذا لم تحسن الحديث بالصوت العذب والألفاظ المختارة والثقافة المنيرة؛ لأن سخاءها بدون ذلك لن يثمر غير المطعم الفخم، أما «الصالون» الراقي فيحتاج إلى الشخصيات الراقية، ولذلك يجب أن تعد القراءة المفيدة – وهي ليست على الدوام مسلية – ضرورية للحديث الطلي المنير الذي يكبر الشخصية.

ولكل فرد مارس المجتمع دمغة خاصة لشخصيته، فهو يختار أوانًا معينة للبذلة التي تلبس، ولا يقبل أن يغير لون طربوشه أو قياسه، وكذلك ترى هذه الدمغة في لغته وإلقائه؛ لأنه طول ممارسته للمجتمع أو الهيئة المحيطة قد استنبط منه استجابات معينة في اللفظ والصوت، فيجب أن نُعنَى، لكي نجعل هذه الاستجابات مما يُكبِّر شخصيتنا وليس مما يصهرها، وأن تكون الدمغة التي نُعرف بها للإطراء والاحترام وليست للازدراء والذم.

(٣) الانتقال من الأنانية إلى الغيرية

تُعد الأنانية من أعظم الصفات التي تعوق نمو الشخصية؛ لأنها تحمل الأناني على البخل والانعزال والانفراد، وتجنب المسئوليات وكراهة التكاليف وواجبات البر وتأدية الخير.

والغيرية تُكِّبر الشخصية من حيث إنها تستنبط في أنفسنا صفات أخرى هي عكس تلك التي ذكرنا، والأساس في الغيرية هو الحب بجميع أنواعه؛ أي: حب الزوجة والأولاد، وحب البشر من أصدقاء نأتنس بهم إلى أبناء الفقراء الذين نمارس البر بالإحسان إليهم ومعونتهم والمطالبة بحقوقهم.

وجميع الأطفال تقريبًا أنانيون، ولكنهم يسمون إلى الغيرية بالاختلاط بالمجتمع، فيطلبون أولًا الحب الجنسي عندما يبلغون سن الشباب، ثم يحققون توسعًا جديدًا لشخصياتهم حين يتزوجون وينجبون الأطفال، في حين أن الأناني لا يجد مثل هذا التوسع لشخصيته إلا في حدود ضيقة.

والحب الجنسي من أعظم الوسائل لتحقيق التوسع في الشخصية، فإن الشاب – والفتاة أيضًا – حين يبلغ العشرين ينبعث بهذا الحب إلى إتقان هندامه وتجميل هيئته، وتتجه نفسه إلى مطامع مالية أو حرفية أو ثقافية، ويشرع في إحساس الكرامة، وضرورة تنميتها فهو يتزود من الثقافة، ويحاول أن يثقف جسمه وذهوه؛ لكي ينال إعجاب الجنس الآخر، فإذا تزوج وأنسل انتقل انتقالًا يكاد يكون فجائيًّا – بالقياس إلى العمر – من الأنانية إلى الغيرية بزوجته وأولاده، وهو يحس أن هذا البيت الذي يعيش فيه ليس له وحده، بل لخمسة أو ستة أشخاص آخرين، وأن كل ما فيه هو ملك شائع بينهم جميعًا، وهو يتحمل همومهم ويتطلع إلى مستقبلهم، وهنا توسع، بل تعمق أيضًا لشخصيته؛ لأن حياته عندئذ ستسير في هذا البيت على مبدأ التعاون والغيرية.

والحب للأبناء يُكبِّر الشخصية أكثر من الحب للزوجة؛ لأن الاهتمام بشأنهم منذ طفولتهم يبعث على توسم الآفاق الجديدة، ودرس طوالع المستقبل والعناية بالوجهات الصحية والثقافية والاجتماعية لهم.

ثم بعد ذلك نجد البر؛ أي: حب البشر، وقد يكون هذا في العزب كما في المتزوجين، ولكنه يرجع في الأصل إلى حب الأم، وقد يكون البر تعويضًا عن الزواج والأولاد، وعندئذ نجد وسيلة أخرى للانتقال من الأنانية إلى الغيرية، فتكبر بذلك شخصية الأعزب.

ومدة الشباب هي مدة هذا التكشف الرائع، حين ننتقل من أنانية الطفولة إلى غيرية الرجولة، فنجد عندئذ الحماسة للوطنية، والتضحية بالصحة والمال من أجل المبادئ السامية، والاندفاع نحو المشاريع الخيرية والرضا بالتعب والحرمان من أجل الخدمة العامة، والشاب الذي تنقضي سنو شبابه وهو لا يحس هذه الحمى للخدمة العامة، ولا يجن ذلك الجنون الشريف من أجل قضية عادلة يعيش شخصية واهنة أو بلا شخصية، ويعد نفسه لشيخوخة ضئيلة عجفاء.

وقد عرفنا شبابًا بقيت أنانية الطفولة عالقة بهم لم تتكشف طبيعتهم إلى الغيرية الاجتماعية، يقرءون الجريدة وكأنهم لا يقرءونها، يقنعون برؤية الصور أو البحث عن الترقيات للموظفين، أو هم يشترون المجلة لكي يقفوا على القيل والقال، وأحيانًا لا يقرءون بتاتًا، بل يقضون أوقاتهم – أو يقتلونها كما يقولون – في إحدى لعب الحظ، وقد تتقدم بهم العزوبة أو هم – لفرط أنانيتهم – يطلبون الزوجة الثرية، وينسون حتى شبابهم

وحقوقهم في هذا الاختيار، فيعيشون في نكد ونغاصة بدلًا من التعاون والحب اللذين كان يجب أن ينتظروهما لو أنهم اتجهوا وجهة الغيرية.

ومثل هؤلاء الشبان تبدو شخصياتهم لأول لقاء عجفاء، لا يعرفون كيف يتحدثون في شأن عام، ولم تستر عقولهم بدارسة تتعلق بالوطن أو العالم، ليس لهم برامج مالية أو ثقافية أو اجتماعية، وهم يطلبون اللذة العابرة في قراءة المجلة أو رؤية السينما أو لعب النرد، وهذا بخلاف الشاب الذي تكشفت طبيعته إلى الغيرية، فإنه يهتم للشئون العامة، وهو يعرف الشيء الكثير عن الفلاح والعامل والمشكلات السياسية والاجتماعية، كما أنه يضن بالدقيقة ينفقها في التافه من لعب الحظ؛ لأنه اتجه – واعتاد الاتجاه – منذ سنوات إلى قضاء وقته في النافع الذي يعود على وطنه بالخير، وليس شك أن له أغراضًا شخصية، ولكن أغراضه للوطن والبر لا تقل شأنًا عن أغراضه الخاصة، ويجب أن تكون لمثل هذا الشاب شخصية خصبة سامية.

(٤) الخدمة الخاصة

غاية الشخصية هي التأثير بغية الإيجاز، وذلك لكي ننتفع بمواهبنا، ونستطيع أن ننجز العمل الذي ننشده ونخدم أنفسنا كما نخدم الغير، ولذلك فإن القدرة على الخدمة الخاصة – لأنفسنا ولغيرنا – تعد مقياسًا حسنًا للشخصية، وجمهور الناس يقيس الشخصية بهذه القدرة، حتى إن

أحدنا ليقول للآخر: «دعك من هذا الرجل فإنه لن يستطيع أن يخدمك؛ إذ ليست له شخصية».

فالشخصية في نظر الجمهور هي القدرة على خدمة صاحبها وخدمة غيره، فقد يكون هذا الذي نتهمه بضعف الشخصية أو انعدامها ذكيًّا طيب القلب ماهرًا في الموضوع الذي وكلناه إليه، ولكنه مع ذلك عقيم؛ لأنه لا يستطيع أن يقنع أحدًا بوجاهة رأيه؛ لأنه ليس له شخصية.

وإذا سألنا: لماذا ليست له شخصية؟ ذكرت له أسباب كثيرة، ربما كان أقربها إلى ذهن المتحدث أنه «غير متداخل».

وعبارة «غير متداخل» تنطوي على أشياء كثيرة؛ منها أنه غير اجتماعي لا يختلط كثيرًا، فأصحاب الشأن في الموضوع الذي يعنينا لا يعرفونه المعرفة التامة، ولا يثقون به، وقلة الاختلاط تنقص الشخصية التي تعد قبل كل شيء صفة اجتماعية، ثم هو قد يكون «غير متداخل»؛ لأن به مركب نقص؛ أي: أنه يخجل من مقابلة الناس أو يخاف العظماء أو يجبن عند اللقاء فلا يتبسط في الشرح، وكل هذه الصفات تعد من عيوب الشخصية السوية فضلًا عن الشخصية العالية، وهذا زيادة إلى أنه قد يكون ثقيلًا؛ أي: ليست هيئته حسنة – بزة وسحنة – كما أن حديثه ليس ظريفًا، ولذلك لا يجد القبول الحسن من المعارف والأصدقاء وذوي الشأن، ثم هو قد يكون سيئ البيان لا يعرف طرق الإقناع، أو قد يكون برمًا سريع الغضب، لا يمتاز بالنفس الطويل في الحوار، وليس له الجلد على الطلب والإلحاح والتشبث بالهدف البعيد.

وذكاؤنا ومهارتنا يبقيان عقيمين ما دامت ليست لنا الدفة التي توجهنا، وهذه الدفة هي الشخصية؛ أي: مجموعة العواطف التي تتألف من الصبر والمثابرة والجد والحلم؛ وغير ذلك مما يجعل المشروع الذي نشرع فيه قريبًا إلى النجاح لا يلقى العقبات التي تسد عليه الطريق، وإذا كان خمسون في المئة من النجاح يعزى إلى الذكاء؛ فإن الخمسين الأخرى تعزى إلى الشخصية، وهذا تقدير متواضع؛ لأن أغلب الظن أن ٧٠ في المئة من النجاح يعزى إلى الشخصية؛ أي: إلى مكانة الشخص: هل هو محبوب أم مكروه، ثقيل الظل أو خفيفة، مثابر على أداء واجباته أو مهمل، كيس أو غليظ، جريء أو خجول.

واحتكاكنا بالجمهور من أصدقاء أو معارف أو معاملين هو احتكاك العواطف، وليس احتكاك الذهن؛ أي: أنه احتكاك الشخصية، ولذلك يسهل علينا أن نخدم أنفسنا ونخدم غيرنا إذا كانت شخصيتنا لبقة حازمة تعتمد في سلوكنا على الكياسة.

ولفظة «الكياسة» هذه تثير طائفة من الخواطر، فإن الشخصية الناجعة في الطبقات المتوسطة، بين التجار والموظفين، هي شخصية الرجل الكيس الذي يغمرك بعواطف رقيقة، يسأل عن صحتك وعن أولادك وقد يذكر لك أسماءهم، وهو لا يجادلك؛ لأنه يعرف أن الجدال يُحرك في نفسك المقاومة، ولكنه يقنعك بإطرائك وبتكرار ما يريد إقناعك به كأنك أنت الذي قلته، وليس قصدنا هنا أن نقول: إن الكياسة تقتضي المخادعة بالحديث الناعم والإطراء الكاذب، ولكنا نريد أن نبين قيمة

العواطف الحسنة نستنبطها في حديثنا، وننظر بها إلى أطيب الخصال في محدثنا فنستميله إلينا بها، ونحثه على إبراز هذه الخصال.

وقد ذكرنا «الخدمة الخاصة» باعتبارها درجة راقية من درجات الشخصية، وهي كذلك ليس من حيث إننا نخدم غيرنا فيتطلعون إلينا للمنفعة، بل أيضًا لأننا نحن نؤدي خدمة لصديق أو معرفة نختلط بالناس ونشتبك بمشكلاتهم، فتزداد خبرة بالمجتمع ونمارس برًّا تعود علينا ثمرته؛ لأن البار عندما يخدم غيره بخدمة ما إنما يخدم نفسه أيضًا؛ لأنه يسلك في أداء هذه الخدمة سلوكًا اجتماعيًّا يستنبط من نفسه أحسن خصالها.

وليس شك في أن الرجل الذي عُرف باستعداده لخدمة الغير يجد من هذا الغير الاحترام والحب، ويجد أن له شخصية لها قدرها العظيم في أعينهم.

فنحن حين نخدم أنفسنا لا نستطيع هذه الخدمة إلا بقدر ما لنا من شخصية.

ونحن حين نخدم غيرنا نُكبِّر شخصيتنا بما يولينا إياه هذا الغير من احترام نحس منه كرامة، كما أن هذه الخدمة تزيد أصدقاءنا، فيزداد اختلاطنا ونحصل منه على الصقل الاجتماعي الذي تتجمل به الشخصية، ومحض أننا نخدم الغير برهان على ارتقاء الشخصية؛ لأننا قد انتقلنا من الأنانية إلى الغيرية.

(٥) الخدمة العامة

القيام بالخدمة العامة – حين تكون ثمرة التطوع لا التكليف – برهان على أن الشخصية قد ارتفعت إلى مستوى آخر لا تبلغه تلك الدرجات الابتدائية، مثل جودة اللباس ورشاقة اللغة والقدرة على الخدمة الخاصة.

ذلك أن الإنسان لا يتطوع بالخدمة العامة إلا بعد أن يكون قد حقق انقلابًا داخليًّا في نفسه؛ إذ يجب أن يجعل للغيرية مكانة تسمو على الأنانية، بل هو قد يُضحي بمصالحه الشخصية من أجل الخدمة العامة، وقد تجد تاجرًا ناجحًا ولكنه يتجنب الخدمة العامة، فهو حين تحدثه عن الوطنية يصمت، بل ربما يحضك على ترك هذه الشئون التي تشغل البال دون أي ربح مادي لك، وهو في هذه الحال يبرهن على أشياء كثيرة.

منها أنه لم ينتقل من الأنانية إلى الغيرية، فهو يعرف المباراة والحسد، ولكنه يجهل التعاون والبر.

ومنها أنه انفرادي يؤثر الوحدة والعزلة على الاجتماع والاختلاط، ومنها أنه لا يُحب درس الشئون الوطنية والعالية، بل لعله لا يقرأ الجريدة أو يقرؤها بلا عناية بهذه الشئون، وبذلك تضيق آفاقه الذهنية.

وهو بهذه الصفات يبدو فقير الشخصية، إذا جالسناه سئمناه، وإذا تحدثنا إليه استجهلناه، وهو أحد الذين يصح أن يُكتب على قبره «ولد إنسانًا ومات بقالًا».

ونحن حين ننبعث إلى الخدمة العامة نكون قد قطعنا مسافة كبيرة في تكوين شخصية اجتماعية حسنة، ولكنا حين نمارس هذه الخدمة نزداد تعمقًا وتوسعًا في تكوين هذه الشخصية، فإن قسمًا كبيرًا من نشاطنا يتخذ وجهة عامة، فنحن ندرس ونختلط أكثر، ونتجه نحو التعاون والحب، ونمارس البر فنكسب الصداقة والوجاهة والشرف، ونتحمل مسئوليات عامة ضخمة فتكبر شخصيتنا بمقدار هذه المسئوليات.

بل أحيانًا حين يُكلف أحدنا خدمة عامة نجد أن هذا التكليف قد حمله مسئوليات جديدة كبيرة، فهو يحاول أن يرتفع إليها ويلبس لبوسها فتكبر شخصيته بقدر هذا الارتفاع، والخدمات العامة تختلف بالطبع من حيث «عموميتها» ومسئوليتها، فموظف البريد الذي يبيع الطوابع للجمهور يُؤدي خدمة عامة، ولكنها من حيث المسئولية ليس لها شيء من خطورة الواجبات التي يتحملها وكيل النيابة أو ضابط البوليس أو العمدة أو المعلم أو مدير الملجأ، وأنت حين تتأمل المسئوليات لهؤلاء الموظفين العموميين تجد أن لهم شخصيات بقدر هذه المسئوليات، ومع كل هذا إنما هم مكلفون ولم يكونوا متطوعين، بل هم قصدوا إلى المصلحة الشخصية أولًا ثم انتهوا إلى المصلحة العمومية.

فوكيل النيابة تكبر شخصيته من حيث يحس أنه مسئول عن إيصال الحقوق لذويها، وإنصاف المظلومين من الظلمة، كما يحس أن ضميره في امتحان دائم حتى لا يُوقع بأحد الأبرياء، وهو بطبيعة حرفته متصل بأمراض المجتمع مضطر إلى دراسات متواصلة، وكل هذا يُكبر شخصيته،

وكذلك المعلم مثلًا مضطر إلى أن يدرس الاجتماع؛ لأن التعليم أو جزء منه خاضع للفلسفة الاجتماعية، وهو يتحمل مسئولية الزيغ في الأولاد أو عليه أن يرشد في معالجتهم فضلًا عن دراسته المواد التعليمية، وقل مثل ذلك في غيرهما.

ولكن الشخصية تكبر أكثر حين يكون أحدنا هو الذي اختار الخدمة متطوعًا لا يرجو منها منفعة ذاتية؛ لأنه بهذا الاختيار قد برهن على اختمار سابق في روحه الاجتماعي واستعداد للتوسع، فهو غير الموظف الذي تأتيه الوظيفة تكلفه المسئوليات، وقد تثقل عليه، فلا يقوى على تحملها ويسيء إليها كما نرى في كثير من الأحايين، أما المتطوع المختار فيتقدم بدافع نفسي وتهيؤ سيكلوجي، فهو يفرح كلما زادت مسئولياته، وهو يدرس ويجد لكي يتحملها ويُؤدي واجباتها، وبذلك تكبر شخصيته وتفخم؛ لأنه وهو يؤدي الخدمة العامة، يرفع تفكيره بعيدًا عن الصغائر ويتجه نحو الغيرية في سياسة وطنية أو بر عام، وهو في هذه الخدمة يلتزم دستورًا من الأخلاق يكفه عن الرذائل والخسائس؛ لأن هذه الخدمة تطالبه على الدوام بالفضائل التي تليق بها، وقس على ذلك.

فالشاب حين ينتظم في حزب سياسي يثق بخدمته الوطنية، أو حين يجاهد القيصرية الأجنبية أو الاستبداد الدخلي، أو حين يشترك في تأسيس ملجأ أو مدرسة، أو حين ينتظم في جمعية لمكافحة الخمور أو التدخين، أو حين يحاول إصلاح الريف؛ في كل هذه الحالات يتقدم الشاب وهو على استعداد سابق للتضحية بوقته وماله، وهو يدرس ويختلط بالجمهور،

فتكبر شخصيته بهذه الخدمة العامة، كما أن هذه الخدمة تُطالبه بالاستقامة والنزاهة والشرف والبر، فهو ينتفع كذلك بها في أخلاقه.

(٦) المهنة

كثير مما يجب أن يقال في هذا الفصل قد قيل في الفصل السابق عن الخدمة العامة، فإن للمهنة تأثيرًا كبيرًا في تكوين الشخصية وترقيتها، وهذا التأثير يختلف بمقدار المسئوليات ونوعها، ولكن للمهنة مع ذلك تأثيرًا في النظام النفسي يحتاج إلى شرح.

وحسب القارئ أن يوازن بين شخصيتين، إحداهما لوارث يعيش بغلة أرضه أو سائر عقاراته، ليست عليه واجبات يومية، وهو لا يتحمل مسئوليات خاصة؛ لأن الريع يأتيه هينًا، وبين شخصية أخرى لمحترف في شركة أو حكومة، أو هو تاجر له مكتبه أو متجره، أو صانع في مصنعه مضطر لكي يعيش إلى أن يعمل ويجد.

الأول؛ أي: الوارث، يُهمل في ملابسه، وكثيرًا ما يُرى في مصر بالجلباب وعليه الجاكتة، يقعد طيلة نهاره على المقهى يقتل وقته بألعاب الحظ السخيفة، وهو يستهلك السجاير كأنه مكلف فناءها، فإذا كان المساء ابتدأ سهرة مع خلان السوء على كئوس الخمر، وهو سمين مترهل يدرس السياسة عن طريق القيل والقال في المجلات الأسبوعية، وهو في حقيقته عاطل من الأغنياء العاطلين ليست له أية شخصية، ونحن هنا بالطبع نعني بالوارث ذلك الذي يعيش في القاهرة، أو إحدى المدن

الكبرى على ريع أرضه أو عقاراته الأخرى، وهو مرتاح مطمئن إلى هذا الريع لا يقوم بأي مجهود لإدارته أو زيادته، ولا نعني بالطبع ذلك الوارث الذي يدير ممتلكاته؛ لأن هذا محترف له في شخصيته ميزات الحرفة.

ثم انظر إلى شخصية ذلك الآخر المحترف الذي يعيش بكده في حرفته، فإن الحرفة تقتضيه المحافظة على مواعيد الصباح؛ فلا يمكنه أن يستسلم لسهرات متوالية تُؤخره عن مكتبه أو متجره أو مصنعه، وهو مضطر إلى العناية أيضًا بعاداته بتجنب كل ما يسيء إلى سمعته، كما أنه يقتصد لمستقبله؛ إذ ليس له ذلك الاطمئنان الذي للوارث، واحتكاكه بالجمهور يجعله رجلًا اجتماعيًّا أنيسًا، كما أنه مضطر إلى أن يتزود من الثقافة لكي يستنير في الشئون العامة، وهو يتحمل مسئوليات عمله لا يستهين بالوعد الذي يعد، ولا يفرط في كرامته.

وهذا الكلام ينطبق على المرأة كما ينطبق على الرجل، فإن المرأة التي احترفت حرفة ما قبل الزواج وزاملت الرجال تحس المسئوليات وتتحمل الواجبات أكثر من تلك التي عاشت بلا عمل، وخير الزوجات لهذا السبب هي تلك التي قضت بعض عمرها في عمل ما كسبت عيشها منه؛ لأن هذا العمل قد اقتضاها عادات نبتت وسوف تعيش بعد الزواج فينتفع بها الزوج والأولاد، فهي تعرف معنى المواعيد وقيمة الواجبات ومصاعب الكسب وقيمة الاستقامة، وتُعنَى ببزة زوجها وأولادها، وتستطيع أن تشترك في القيام بشئون عامة، وقد نقلتها الحرفة إلى حد ما

من الأنانية إلى الغيرية، كما أنها لا بد أيضًا قد أزالت عنها أخلاق الطفولة أو نقصت تأثيرها، وكل هذه الصفات تخدم الحياة الزوجية الهنية.

فالمهنة توجد لنا نظامًا نفسيًّا يجعل شخصيتنا تبرز وتنمو وترق، كما أن التعطل الذي يزيل عنا المسئوليات يجعل شخصيتنا تضمر، بل قد تتحطم وتزول كما نرى في أولئك الوارثين الذين يصلون ليلهم بنهارهم في المقاهي والحانات، ولهذا يجب على كل إنسان أن يحترف حرفة، فإنه ينتفع بها ولو لم يربح منها قرشًا، وهذا الانتفاع هو في أخلاقه وشخصيته، والشاب حين يحترف حرفة ما يحس كرامة تكسبه شجاعة وطموحًا وتفاؤلًا، وترى علامات كل ذلك في سحنته ومشيته وحديثه إذا وازنا بينه وبين شاب متعطل قد طال تعطله سنة أو سنتين، فإننا نجد هذا منكسر النفس مثبط القلب يسير مطأطأ الرأس في تؤدة تشبه الركود والخمول.

والنظام الاقتصادي الذي يحيل المتعلمين إلى متعطلين إنما يقتل شخصياتهم ويفسد نظامهم النفسي، كما أن النظام الاجتماعي الذي سن الحجاب قد قتل شخصية المرأة وأفسد نظامها النفسي، وفي كلتا الحالتين نجد أن هذا القتل يعود إلى حرمان الشخص – رجلًا أو امرأة – تلك المسئوليات والواجبات، وما تستتبعه هذه من كرامة واختلاط بالمجتمع.

(٧) العائلة

إذا أتيح للإنسان في مجتمعنا أن يتزوج، وأن يتحمل مسئوليات الزواج والأولاد؛ فإنه يكون قد بلغ درجة عالية من الشخصية لا يبلغها الأعزب، بل إن محض الرغبة في الزواج والسعي له برهان على روح اجتماعي عالٍ، ومدة الخطبة امتحان للشخصية سواء للفتاة أم الشاب، ففي هذه الحالة تجري المعاينة الدقيقة والبحث البصير من كل من الطرفين عن معاني الظرف والرشاقة أو الجلافة أو الارتباك، وعن الصوت، هل هو خشن أم أغن؟ وهل البزة حسنة مهيأة أم رثة مهملة؟ ثم يرتفع الامتحان إلى الأخلاق، هل هذا الخاطب بخيل مقتر أم سمح كريم أم مسرف مستهتر؟ وهل هو مستقيم أم معوج، مثقف أم جاهل؟

والانتقال من العزوبة إلى الزواج هو – من ناحية الزوج – انتقال من التشرد الجنسي إلى الاستقرار الجنسي، ومن العاطفة الجنسية العارية إلى الميل الاجتماعي الراقي المؤلف من العواطف الجنسية والأبوية والاجتماعية، ثم هو انتقال من الشهوة إلى الحب، وكل هذه العوامل ترتقي بها الشخصية، ولهذا السبب نحن نحترم الزوج أكثر مما نحترم الأعزب، ونحن نعتمد عليه أكثر، وهو كذلك يتأثر بحياته الزوجية الجديدة فيحترم نفسه أكثر ويترفع عن الدنايا، ومن المشاهدات المحققة أن الإجرام يقل كثيرًا بين المتزوجين ويفشو بين العزب، ذلك أن مسئوليات الزواج والأولاد تبعث على الاستقامة وتُنمي الروح الاجتماعي الذي يحملنا على النزول على آراء المجتمع وكراهة الشذوذ، وهناك بالطبع

نقائص اجتماعية تبعثها هذه الحال الجديدة، كما نرى في المثل القائل: «الولد مبخلة ومجبنة لأبيه.» ذلك أن الزوج الأب يكره الاقتحامات ويحجم عن السخاء؛ لأنه يُبالغ في التبصر لمصلحة الأولاد، ولكن معظم الناس لا يُطالبون بالشجاعة أو السخاء، ولذلك فإن هاتين النقيضين اللتين يبعثهما الزواج لا توازنان الفضائل الكثيرة الأخرى التي تنتج عنه.

ونحن حين نخرج من العزوبة ونتزوج، ونكون عائلة جديدة، نجد عوامل جديدة تحملنا على أن نحسن مكانتنا الاجتماعية ونتبصر للمستقبل وتزيد ثقافتنا؛ لأن المسئوليات الجديدة التي تحملناها بالزواج قد ألقت علينا واجبات جديدة، فنحن نقتصد لكي نجمع للأولاد تركه يعتمدون عليها، ونحن نحجم عن الدنايا لكي لا تحمل عائلتنا فضيحتها، ونحن نُعنَى بتربية أولادنا فنربي بذلك أنفسنا، ويصبح البيت بؤرة اهتمامنا، نُزينه ونشتري له الأثاث ونحس كأنه خالد؛ لأننا نعقب أولادًا وأحفادًا سيعيشون فيه، وهذا نظر يختلف اختلافًا كبيرًا عن نظر الأعزب الذي لا يرتبط بالمجتمع هذه الارتباطات.

ولكن إذا كان الزواج يُكبِّر شخصية الرجل وينميها فإنه يفعل أكثر من ذلك للمرأة؛ لأن الرجل يجد في حرفته وفي مكانته الاجتماعية – وخاصة في بلادنا – ما يُكوِّن له شخصية راقية متزنة، ولكن المرأة قبل الزواج لا تجد مثل ذلك في مجتمعنا؛ إذ هي لا تحترف ولا تكسب من الحرفة تلك الشخصية التي نكسبها نحن الرجال، ولذلك يُعد الانتقال للفتاة عندنا من العزوبة إلى الزواج وثبة إذا عد عند الرجل خطوة، حتى

مهما تكن خطوة واسعة، ولكن بشرط أن يكون هذا الارتقاء للمرأة قائمًا على أنها ستكون عند الزواج سيدة بيتها، ليست عليها حماة متسلطة أو ضرة تثير فيها عواطف الحسد والغيرة، وتحملها على أن تنفق وقتها في إغراء بيولوجي مثابر لزوجها، وبشرط أن تكون الغاية من الزواج اجتماعية كما هي بيولوجية حتى يصير البيت معهدًا حرًّا تجد فيه الإرادة مجالًا للنمو والتكشف، وليس بيتًا شرقيًّا تخضع فيه الزوجة للزوج؛ لأن الزواج الذي تتربى فيه الشخصية العالية هو الزواج الحر الذي نبت من بذرة الحب، وعاش على مبادئ المساواة بين الزوجين، بعيدًا عن الحماة والضرة وتسلط الزوج، وفي مثل هذا البيت ينشأ الأولاد الهانئون ويحيى الأزواج الراشدون.

والذي أراه أن في بلادنا تتكون شخصية المرأة بالحرفة أكثر جدًّا مما تتكون بالزواج؛ ذلك لأن زواجنا لا يزال شرقيًّا، وليس البيت المصري مؤسسة اجتماعية ديمقراطية، ونحن نعيش وكأننا نجهل أننا لن نكون أمة ديمقراطية حتى تكون بيوتنا ديمقراطية حرة، ولن تكون لنا الشخصيات الممتازة إلا إذا تربت ونشأت في بيئة تسودها الديمقراطية الحرة.

ولو عاشت المرأة المتعلمة عندنا في عائلة حرة، وأدت واجباتها العائلية نحو زوجها وأولادها وضيوفها على التمام؛ لكانت العائلة أقوى في تكوين الشخصية من الحرفة؛ لأن مسئوليات الزواج والأولاد تمس المجتمع أكثر مما تمسه الحرفة كائنة ما كانت، وهي تطالبها بالحب والتعاون والتبصر والدراية بأصول المعاملة الناجعة والتربية المفيدة، كما تطالبها

بالجمال والظرف والأناقة ليس في شخصها بل في بيتها أيضًا، والزوجة مطالبة بأن تكون متمدنة ظريفة لها ذوق في الملابس والأثاث، كما هي مطالبة بأن تعرف العوامل التي تُكوِّن أولادها، وترقى بهم في المستقبل، وهي مضطرة إلى تحمل مسئوليات تحملها على الاستقامة والتبصر والاقتصاد والشرف والحب والتضحية مثل الرجل، بل أكثر منه، وجميع هذه الفضائل تجعلها تنظر للشئون العامة والخاصة نظرًا اجتماعيًّا، في حين قد تنظر إليها الآنسة نظرًا انفراديًّا، وفضائل الزوجة هذه تزداد إذا كانت قد عملت وكسبت قبل الزواج، ومن هنا تتكون شخصيتهما وترقى.

(٨) النمو

الشخصية الراقية هي الشخصية النامية، وكل إنسان سوي يجب أن ينمو، والمنحرف أو الزائغ هو وحده الذي ينقطع عن النمو بأن يركد ويترهل ويقنع بحاله الراهنة، ولكنا نقصد من النمو هنا إلى درجاته العالية، ونعده طورًا عظيمًا من أطوار الشخصية الراقية.

ولا يمكننا أن نتخيل شخصية جامدة كل الجمود؛ لأن التغير من طبيعة الحي، ولكننا نميز بين التغير البطيء الوضيع، الذي يُقارب الركود ولا يمس غير الماديات الصغيرة، وبين التغير الذي يعد تطورًا وتكشفًا يمتاز بهما الرجل الراقي الذي ربى نفسه وصاغ شخصيته، وكذلك لا ننسى تغير التقلب الذي تتميز به الشخصية القلقة في الشخص النيوروزي.

ولو أن شبابنا كانوا يتجهون وجهة النمو لما رأينا تلك المقاهي التي تعد بالمئات والألوف في أنحاء القطر، ولما رأينا تلك الأفواج العظيمة تزدحم على أبواب الدور السينمائية، بل لما استطاعت مجلة أسبوعية واحدة من مجلات القيل والقال أن تعيش أسبوعًا؛ لأن الشاب الذي ينمو يرفض قتل الوقت بمثل هذه المسليات التافهة.

والنمو بالطبع يعني التغير، ولكن يجب ألا ننخدع بكل تغير؛ لأنه قد يكون أحيانًا من أعراض المرض بدلًا من أن يكون من إمارات الصحة، فإن النيوروزي – أي مريض العاطفة – قد يمتاز بهبات إصلاحية سرعان ما ينقطع عن السير في شوطها.

وأحيانًا قد يدفعه مركب النقص إلى هرولة غير متزنة نحو أحد المشروعات أو عدة مشروعات، فإذا لقي أضعف الصدمات عاد أدراجه بالسرعة أو بالجري والعجلة التي ابتدأ بها، ومثل هذا النيوروزي نجده في أمثال أولئك الذين يحاولون وقف التدخين أو الخمر بلا نجاح، وفي أولئك الآخرين الذين يضاربون بالمقامرة في المال أو الزواج، وكل منهم يقصد إلى الثراء والسعادة، وهو مسوق بعاطفة مشتعلة لم تخضع للعقل وسرعان ما تعود إلى الانطفاء.

والشخصية الناضجة قادرة على التغير ولكن في اتزان، وهذا التغير هو نمو يبدو لنا كأنه انقلاب مفاجئ، ولكنه في الواقع ثمرة اختمار سابق كانت النفس فيه تتهيأ للحظة السيكلوجية.

والنمو الذي يرقى بالشخصية يجب أن يحتوي الصغائر، ولكنه لا يتقيد أو يقنع بها، وهناك أنواع مختلفة من النمو، فإن المحترف مثلًا يجب أن يزداد معرفة بحرفته يدرس وسائل إتقانها كي يصل إلى القمة؛ أي: يجب ألا يقنع «بالواجب» كما هو الشأن في كثير من الموظفين؛ لأن هذا الواجب يعني في النهاية كراهة المسئوليات الكبرى وتجنبها، فيكون في هذا الركود تعطيل لنمو الشخصية.

وفي مجتمعنا الحاضر لا يمكن الإقلال من شأن المال الذي نشتري به حاجاتنا، بل رفاهيتنا الذهنية والجسمية، فيجب أن ننمو من الناحية المالية كما ننمو من الناحية الحرفية، ولكن يجب هنا التمييز بين الشخصية السليمة والشخصية المريضة، فإن الرجل السليم يطلب المال بعقله؛ لأنه وسيلة الرفاهية، وهو ينفقه في سخاء كي يُرقي نفسه ويُرقي أعضاء عائلته، بل ويُرقي المجتمع الذي يعيش فيه، ولكن النيوروزي يندفع بالعاطفة لجمع المال كأنه غاية كي يصير غنيًا جدًّا، وهو هنا لا يختلف من الطفل الذي يريد أن يكون طويلًا جدًّا حتى يبلغ السحاب! ويجب أن نتوسع في معنى النيوروز – أي مرض العاطفة – لأننا نراه كثيرًا بين أشباه الأسوياء، في ذلك الذي ينكب على جمع المال، وفي ذلك الذي يُطلِّق ويتزوج كثيرًا، وفي شريب الخمر المدمن، وفي القوال الفعال عن الاقتحامات الجنسية، وفي الزائغ الجنسي، وفي المتأنق الذي يقضي كثيرًا من وقته أمام المرآة ... إلخ إلخ، وبمثل هذا التوسع نستطيع أن نعيد الزائعين إلى السواء، ولا ننخدع بالزائغ يبدو لنا كأنه بطل.

وعلى هذا يجب أن يكون نمونا المالي متسقًا مع شخصيتنا يُرقيها ويُنضجها بدلًا من أن يُحطها ويهزلها، ويجب ألا نترك روح المباراة الحالية التي غرسها فينا المجتمع تغرنا إلى حد الإهمال لرقينا ونمونا.

والنمو الاجتماعي هو أبرز أنواع النمو في ترقية الشخصية؛ لأن صفات الشخصية البارزة اجتماعية، ولكن الرقي الاجتماعي للشخصية لا يمكن أن يقحم عليها، بل هو يأتي عفوًا باعتبار أنه ثمرة الرقي الثقافي والحرفي والمالي، فالإنسان حين يبرز في ميادين الثقافة والحرفة والمال يجد أن الشخصية قد ارتفعت إلى مستوى عالٍ من الرقي الاجتماعي، فهو ينمو اجتماعيًّا وينمو ثقافيًّا وحرفيًّا وماليًّا؛ لأن الأصدقاء والأنصار يتجذبون إليه ويتكاثرون، وهو يجد نفسه يتدرج في نمو اجتماعي يعرف أصدقاء جددًا، أو ينتقل في أوساط اجتماعية جديدة.

وأقل أنواع النمو بروزًا في الشخصية – وخاصة في مجتمعنا المصري – هو النمو الثقافي، فإن جمهورنا لا يُقدِّر هذا النمو بما يستحقه، والواقع أن متعة الثقافة ستظل مدة طويلة في بلادنا وهي متعة فردية، ولكنها مع ذلك ضرورية لنمو الشخصية إذا اعتبرنا أن الحديث المنير والإحاطة بالشئون العامة بعض ما تُكوِّن به الشخصية، والجاهل يستحيل جلفًا إذا نطق في مجتمع متعلم، والاضطلاع بالشئون أو المشروعات العامة يحتاج إلى معارف كثيرة تزودها لنا الثقافة المنظمة والاطلاع الدائب، والآداب والفنون تصوغ الشخصية الأنيقة العالية، وكثيرات من ربات البيوت في مصر ينفقن عشرات الجنيهات على بزهن الجسمية، ولكنهن لا ينفقن

سوى القليل على البزة الذهنية، فإذا انعقد اجتماع كن فيه مخرسات، أو ناطقات يتحدثن عن الخدم والقيل والقال، والبزة الحسنة المؤلفة من الملابس والوجه المشرق ضرورية لشخصية المرأة، ولكنها لا تُغني إذا كان حديث هذه المرأة جهلًا وخرفًا.

والخلاصة أن الشخصية العالية تحتاج إلى النمو الدائم في الحرفة والمال والاجتماع والثقافة، ويجب ألا ننسى أن النمو الثقافي تعظم قيمته إذا اعتبرنا شخصية الرجل والمرأة في الشيخوخة؛ لأن الثقافة الماضية والراهنة تصيران عندئذ غذاء الشخصية التي توقى بهما من التحطم أو الانهيار.

(٩) الأهداف والمثليات

المثليات هي جمع مثلى، مثل أخرى وحسنى، ونحن نعني بها ما كان يُسمى «المُثُل العليا» فإن هناك حالًا مثلى للمجتمع يتخيلها كل مشتغل بالشئون العامة عالمية أم وطنية ويحلم بتحقيقها، وتمتاز هذه اللفظة بأنها مفردة، تمكن النسبة إليها، فنقول مثلًا: «هذا كاتب مثلوي» كما نقول: عالم أخروي؛ أي: أنه ينشد المثليات ولا يقنع بالواقع ويُجانب الخيال والحلم، والكاتب المثلوي هو الذي يحلم في اليقظة ويتخيل الحال المثلى لمجتمعه، ثم يجعل أدبه أدب الكفاح لتحقيق خياله، وهو يجد في مثلياته محركات اجتماعية تعجل التطور، وتُسرع خطى الرقي.

ومتى كان أحدنا مسوقًا بالمثليات الإنسانية فإنه يعد عندئذ على القمة من حيث كمال الشخصية، وهو ليس في حاجة إلى أن نحدثه عن الشئون التي عالجناها في الفصول الماضية، فإن هذه المثليات ترفعه إلى الاضطلاع بمسئوليات عالمية عن الإنسان والوطن والعالم، وهذه المسئوليات تستنبط خير ما في طبيعته من بر وشرف وتضحية وجهد، فهو دائب الدرس كي يزداد معارف عن موضوعه، وهو ينكر على نفسه اللذات المادية؛ لأن لذته الروحية في الخدمة البشرية تجعل هذه اللذات صغيرة لا يلتفت إليها، وهو بطبيعة اتجاهه يحتك بأرقى الأوساط، وينال أعظم الإعجاب، فلن تحدثه نفسه بالتدني، وهو شخصية تاريخية يوجه الأمم ويؤثر في العالم، وينهج الخطط الجديدة للرقي البشري، ولكنه، كما يؤثر في الجماعات ويوجهها، كذلك هو نفسه يتأثر بمثلياته حتى لنعتقد أنه قد تغير وصار بشرًا آخر من غير طينتنا؛ لأننا نجد فيه استقامة فذة وشرفًا صارمًا، وهذا إلى جراءة الأبطال وبصيرة الأنبياء، صفات تعلو على مستوى البشر.

هؤلاء الأشخاص لا يزدحم بهم التاريخ؛ لأنهم نادرون، ومنهم الأنبياء والقديسون وزعماء الحرية ودعاة المذاهب الإنسانية.

وهنا يتساءل القارئ: وإذن لماذا تذكر هؤلاء وأنت تريد تكون شخصية الشاب المصري، وهو لن يكون من الزعماء فضلًا عن القديسين أو الأنبياء؟

فالجواب أننا يجب أن ننتفع بحياة الأنبياء والقديسين والزعماء مهما تكن ضآلتنا، ويجب أن تكون لكل منا رسالة، وأن ندافع عن قضية عادلة لكشف ظلم، أو مكافحة ملكية، أو رفع عبوديات من أنواع العبوديات الكثيرة التي تنتشر في عصرنا تحت أسماء مختلفة؛ لأن الشعور بأن لنا رسالة، أو بأننا نُدافع عن قضية عادلة، يوحي إلى نفوسنا الكرامة والرغبة في الخير، وهذه الكرامة تعود علينا بالشخصية العالية، وترفعنا إلى أسمى مراتب الإنسانية كما تعود على البشر بالرقي والتقدم.

والمثليات أهداف نتجه إليها بنشاطنا، وهي تُحفزنا إلى العمل، فلا نركد ولا نسأم الحياة، ولا نفر منها إلى الاعتزال أو النسك أو المخدرات أو غير ذلك من وسائل قتل الشخصية أو توهينها، وعلى قدر السمو الذي ترتفع إليه هذه المثليات يكون السمو في شخصيتنا.

وليست المثليات مع ذلك مما يتجاوز السحاب حين نجعل منها أهدافًا نخدم بها البشر، ونُقوِّم بها شخصيتنا، فإننا نعيش في جو من المظالم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لا نحتاج فيه إلى ذكاء كبير كي نقف على عللها ووسائل معالجتها، فهنا في القاهرة أبناء الشوارع الذين يتهيئون للجريمة عندما يشبون، وفي الريف يعيش ملايين من المصريين لا يزيد أجر أحدهم في العام على أجر وزير في اليوم، وفي كل مدينة نجد آلاف الذين، بدلًا من أن يجدوا منا احترام الشخيوخة، نضطرهم إلى أن يحصلوا على اللقمة بالاستجداء، وفي أنحاء بلادنا عشرات السجون التي

تؤوي المساكين الذين يدخلونها أشقياء ويخرجون منها وهم أشقى حالًا، وأعجز مما كانوا عن سلوك الاستقامة.

والشاب الذي يدرس شقوة واحدة من الشقوات، ويحاول أن يحيلها إلى سعادة يكون قد أدى رسالة إنسانية سامية خدم بها الخير والبر والشرف، كما خدم بها شخصيته، ومهما كانت النتيجة صغيرة لمجهوده إزاء قوات الشر التي تريد أن تنهب وتنصب وتسرق وتستبد وتثرى، فإن حياته التي استرشدت بإحدى المثليات لا بد أن تحرك التاريخ البشري نحو الخير والبر، ولا بد أن تبقى شخصيته مصباحًا يضيء لكل مصلح.

وأعظم المثليات التي ترفع الشخصية هي تلك التي تستوعب حياتنا في الكفاح؛ لأنها حين تكون كذلك نحس غلوًّا، وهذا الغلو هو الطابع الذي لا يخطئه إنسان في التعرف إلى الشخصية السامية.

وعلى قدر كفاحنا يكون الغلو، ويكون قدر الشخصية.

(١٠) تلخيص

للشخصية درجات تُقاس بها، أدناها الملابس والعناية بالقوام والسحنة والصوت واللغة المختارة، ثم ترتقي من هذه الظواهر إلى البواطن، فنجد درجة أعلى في التغير الداخلي حين يترك الإنسان أنانية الطفولة والاعتماد على العواطف إلى الغيرية الاجتماعية، والاعتماد على

الميول الاجتماعية، ثم نجد القدرة على الخدمة الخاصة وتليها الخدمة العامة.

ودرجات عالية أخرى للشخصية، هي تحمل مسئوليات الحرفة والعائلة، الأولى للرجل والثانية للمرأة على وجه عام، وإن كان نظام العائلة في مصر لا يسمح للمرأة بتكوين شخصية قوية.

والشخصية العالية تحتاج إلى النمو الذي هو أصل التعبير السليم؛ لأن الشخصية التي تجمد وتركد تعد منحطة مهما كانت المسافة التي قطعتها إلى الرقي بعيدة، ولكن لا يمكن أن نصل بالشخصية إلى التمام والسمو إلا إذا كانت لنا فلسفة توجيهية، وإلا إذا كانت لنا أهداف ومثليات نحلم بها ونحاول تحقيقها، ولا عبرة بأن تكون المثليات كبيرة ومقامنا صغيرًا؛ لأننا ننفع وننتفع بالمجهود الذي نبذل في تحقيق هذه المثليات.

الفصل الرابع

تمارين لتنمية الشخصية

(١) الاجتماع المختلط.

(٢) المناقشة والإلقاء.

(٣) الثقافة واللغة.

(٤) التمثيل.

(٥) اعتبار عادات جديدة.

(٦) الهواية.

(٧) الدفاع عن قضية عادلة.

(٨) تلخيص.

(١) الاجتماع المختلط

عندما نجد صبيًّا أو شابًّا قد ضعفت عضلاته وترهل جسمه ننصح له – إذا لم يكن يشكو مرضًا معينًا – بالرياضة، والرياضة هي مرانة لتثقيف الجسم وشد العضلات وتقويم القامة.

والشخصية الضعيفة تحتاج، لكي تقوى، إلى مرانة بل مرانات مختلفة ومعينة، فما يحتاج إليه أحد الشبان أو الفتيات قد لا يحتاج إليه شاب أو فتاة آخران، وقد يكون نقص الشخصية راجعًا إلى إهمال البزة أو اتخاذ بزة معينة قد وسمت، بل وصمت، في ذهن الجمهور بأنها رمز لشخصية محتقرة، وفي انتقالنا إلى البيئة الاجتماعية الغربية قد أصبح للملابس قيمة اجتماعية ورمزية شخصية لا يمكن لأحدنا أن يتجاهلها، فلو أننا عقدنا اجتماعًا منزليًّا وحضرته سيدة مبرقعة، أو لا تزال متلففة في الحبرة أو الملاءة، لشعرنا بأن التناسق الاجتماعي ليس على أتمه، وكذلك الحال في ملابس الرجال جميعًا.

ولسنا نظن أن الهندام الحسن يحتاج إلى مرانة؛ لأن الإنسان الذي يمتاز بذكاء متوسط يعرف قيمته، وهو أول درجات الشخصية كما سبق لنا شرح ذلك، بل الذي يلاحظ هنا أن كثيرًا من الشبان والفتيات يعنون بالملابس أكثر مما تستحق، والغاية المضمرة بالطبع من هذه العناية هي تكبير شخصياتهم، ولو أنهم أنفقوا بعض المال والوقت اللذين يرصدان للملابس على الوسائل الأخرى التي تُكبِّر الشخصية لكانت النتيجة أبلغ؛ إذ ما الفائدة من الفستان الأنيق للفتاة إذا كانت بكماء أو كالبكماء لا

تُحسن النطق أو الحديث، كلما قعدت في مجتمع بقيت صامتة تسمع ولا تنطق؟

وأكبر مرانة للشخصية هو الاجتماع، ذلك أن الشخصية بطبيعتها اجتماعية، فهي تزكو في المجتمع، وهي تهزل بالانعزال والانفراد، وكثير من الشبان يعتادون عادات انفرادية تجعلهم كأنهم «محايدون» ليس منهم نفع أو ضرر، فهم مثل ذلك الذي ذكره الإنجيل بأنه ليس باردًا ولا حارًّا، بل فاترًا، وليس لمثل هذا شخصية، ونحن نعرف أمثال هؤلاء في ذلك الشاب «المستقيم» الذي لا يعرف غير منزله ومكتبه، فهو لا يشترك في نادٍ، ولا يقعد على مقهى، وليس له أصدقاء، بل هو لا يشترك في حزب سياسي أو جمعية خيرية، بل قد تنزع به عاداته الانفرادية إلى كراهة الزيارة لأقاربه أو أصدقاء زوجته، ومثل هذا الشاب لن تشفع فيه استقامة، فهو يظل متأخرًا؛ لأنه ضعيف الشخصية، وهذا الضعف يرجع إلى أنه غير اجتماعي، وهو في حاجة إلى مرانة بالاختلاط.

أي يجب أن ننزعه من البيئة المنزلية المحدودة إلى البيئة الاجتماعية الواسعة، ويجب أن نبين له أن التزامه للبيت قد دمغه بأوصاف معينة، فهو مثلًا يتكلم مثل زوجته، ويتحدث أحاديث القيل والقال عن الحوادث والمنازعات العائلية، بل إن صوته تسوده نغمة أنثوية، والزوجة الساذجة قد ترتاح إلى مثل هذا الزواج، ولكنها إذا كانت رشيدة ناضجة فإنها يجب أن تأسف، ويجب أن تحث زوجها على مرانة اجتماعية حتى تُكبِّر شخصيته.

والمرانة هنا تعني أن هذا الشاب يجب أن يُعنَى بأصدقائه، وأن يختار منهم عددًا يوافونه بالاجتماع في مقهى أو نادٍ، وهو بالطبع يختارهم لميزات في شخصياتهم، وهو يحادثهم ويناقشهم في الموضوعات المختلفة؛ لكي يستنير منهم، ولكي يعالج ما فيه من عادات سيئة بانتقادهم له.

وبالطبع يجب أن نعد النادي خيرًا من المقهى؛ لأن الشاب يجد في النادي شبانًا مثله هم في العادة في درجته الاجتماعية، فهو لن ينكمش في اجتماعاتهم، كما أن النادي – إذا كان راقيًا – يستطيع أن يُربِّي شخصيته بأن يُكلفه واجبات مختلفة؛ كأن يكون عضوًا في لجنة رياضية أو ثقافية أو اجتماعية، وهو في هذه اللجنة يمرن صوته على الكلام ويجرؤ على الحديث على الرغم مما يحس من خجل، وقد يشترك في مناظرات تُربِّي فيه كفاءات جديدة في القدرة اللغوية والخطبة، ولكلتيهما الشأن العظيم في تكوين الشخصية.

ثم هناك الضيافة، فإن ربة البيت الانفرادية ليس لها شخصية، ولذلك يجب أن تَزور وتُزار؛ أي: يجب أن تُعنَى بفن الضيافة لكي تُربِّي شخصيتها وشخصية زوجها، وكلنا يعرف الفرق بين ربة البيت الاجتماعية التي تُعنَى بهندامها وحديثها وإيماءاتها، بل أيضًا بنظافة بيتها وتنسيق أثاثه، وبين ربة البيت الانفرادية التي لا تَزور ولا تُزار، تلك التي تتخذ الرث من الملابس، ولا تحسن الحديث إلا عن المطبخ والأولاد والخدم وليس لها أي نشاط اجتماعي.

والاجتماع المختلط يُعلم الشاب والفتاة الرشاقة في الحركة والتأنق في الحديث، والعناية بالهندام وترقية الذوق، والاطلاع على الشئون العامة؛ وكل هذا يُربِّي الشخصية، بل للزمالة في الحرفة بين الشاب والفتاة قبل الزواج أكبر الأثر في التربية الاجتماعية للاثنين.

فالمرانة الأولى لتربية الشخصية وترقيتها تنحصر في:

(١) تجنب العادات الانفرادية التي تجعلنا منفردين عن المجتمع.

(٢) اتخاذ الأصدقاء مع العناية بميزاتهم الشخصية.

(٣) الاشتراك في نادٍ، والمواظبة على الحضور في لجانه والقيام بواجباته.

(٤) يجب أن «نَزور ونُزار» ونُعنَى بفن الضيافة.

(٢) المناقشة والإلقاء

من أحسن التمارين لتكوين الشخصية وترقيتها أن نُناقش ونُخطب ونُعنَى بالإجادة في الأداء اللغوي، ذلك أن من أعظم العلامات للشخصية الضعيفة ذلك العجز في التعبير بألوانه المختلفة.

(١) فقد تتكلم بصوت يعلو أكثر مما يجب فيوهم الإساءة، أو ينخفض فيوهم الخوف والحياء.

(٢) وقد نعتاد عادات تثبت في كلامنا فنتنحنح أو نصمت طويلًا، أو نأكل الحروف في أواخر الكلمات.

(٣) وقد نعتاد المناقشة بطريقة المخاصمة فنعاند ونكابر.

(٤) وأحيانًا نستعمل كلمات معينة فيها جفاء أو جلافة، والشخصية تنقص قيمتها بمقدار هذا العجز، وهي تعلو وتنال الإعجاب بالإحسان في الإلقاء وحلاوة الحديث أو منطقه واختيار الكلمات المنيرة الدقيقة، ومن أقسى الامتحانات الشخصية أن يقف أحدنا للخطابة، فإن الذي لم يتعودها إذا فوجئ بإلقاء كلمة في اجتماع ما ينعقد لسانه ويتصبب عرقه ويقعد واهنًا خجلًا، في حين أن الخطيب المتمرن يُوحي إلينا جميعًا بقوة شخصيته، ولو لم يأت بغير التافه من المعاني، ذلك لأنه ألقى كلماته بفصاحة وجهارة وبعد عن الخجل.

ولهذا السبب يجب على الشاب الذي يرغب في تكوين شخصيته وترقيتها أن يُعنَى بالمناقشة والخطابة، ويتمرن عليهما، فإننا جميعًا في الوسط العائلي الذي نشأ فيه في مصر نُعاني «مركب نقص» في الخجل أو الخوف من الاجتماع، فقد كان أهلونا يمنعونا من الاختلاط، ويخوفوننا من الكلام في حضرة من أهم أكبر منا سنًا، ولذلك نحتاج إلى أن نتخلص من الخوف (أي: الخجل) بتمارين معينة نتجرأ فيها على الكلام في الاجتماعات، ونُمارس فيها الإلقاء بلغة حسنة قد عنينا فيها باختيار الكلمات كما عنينا بصيغة الإلقاء الجريء الصريح.

وبعض المدارس الأجنبية تُربِّي الشخصية في الصبيان بأن تعودهم الغناء والخطابة والتمثيل في الاجتماعات، والصبي الذي ينشأ على أن يغني أو يخطب أو يُمثِّل أمام نحو ٣٠ أو ٤٠ من إخوانه في المدرسة

يستطيع أن يجرؤ على الوقوف خطيبًا، أو أن يقعد مناقشًا في أي اجتماع آخر، وهو بهذه الممارسة تتكوَّن له شخصية جريئة بعيد من العلتين الأصليتين للشخصية، وهما الخوف والخجل.

وإذا لم تكن مدارسنا قد عُنِيَتْ بهذه التمارين لتربية الشخصية فإنه يجب على الآباء أن يعنوا بها في البيوت مع أبنائهم؛ أي: يجب أن يجرئوهم على المناقشة، بل على الغناء والتمثيل في الوسط العائلي، وقد يكون الأثر صغيرًا؛ لأن الصبي قد يجرؤ بين أخوته ولكنه يجبن مع الغرباء، ولكن هنا خطوة يجب أن تقطع قبل الخطوات الأخرى في المجتمع.

أما الشاب الذي يجد في نفسه ضعفًا في الخطابة، وقصورًا في المناقشة، ونقحًا في التعبير؛ فيجب عليه أن ينضوي إلى جمعية ما، أو يُؤلف مع زملاء له مثل هذه الجمعية، ويرتب مع سائر الأعضاء حلقات لدرس الموضوعات السياسية والاجتماعية، والفائدة هنا مزدوجة؛ لأنه بالدرس يستنير ويزداد ثقافة وعرفانًا، وهو أيضًا يتمرن على الحديث والإلقاء، ويجد في إخوانه ما يجرئه على الإلقاء؛ إذ هم ليسوا أفضل منه وما يشكوه من نقص يجد مثله عندهم، بل ربما أكثر مما عنده، وإذا كانت ظروفه لا تسمح له بالانضواء إلى جمعية؛ فعليه أن يُرقِّي نفسه منفردًا في غرفته.

والخطابة ارتجال، وهي ارتجال في الكلام كما هي ارتجال في التفكير، أو هي تفكير بصوت عالٍ، وهي عادة لا أكثر ولا أقل، ومتى اعتدنا الخطابة عنينا بالإلقاء والتأنق في المعاني واختيار الألفاظ، وكل هذا يُكبِّر شخصيتنا.

وهذه الحلقات التي أشرنا إليها يجب أن يقودها رئيس مدرب يتجنب السخرية عند العجز؛ لأن أعظم ما يشكوه الشاب هو الخجل، فإذا سخرنا به عند تلعثمه أو تردده زدناه خجلًا، وأغلب الظن أنه بعد ذلك يتجنب الحلقة ويرفض التمرين، بل كذلك الصبي في البيت يجب ألا نهزأ به.

ويجب على كل شاب أن يعرف أنه لن تتكون له شخصية حسنة إلا بعد أن يكون قد بلغ بعض الشيء في الإلقاء، وصارت العناية عنده بالحديث عادة، وارتفاعه من الإلقاء الحسن في الحديث إلى الإلقاء الحسن في الخطابة هو ارتقاء عظيم في الشخصية، فإن قليلًا هم الذين يُحسنون الخطابة، وميزتهم لهذا السبب كبيرة، وعندما نقارن بين كاتب عظيم يمتاز بدقة المعاني وفصاحة الأسلوب وسمو التفكير، وبين آخر دونه بكثير، ولكنه يحسن الخطابة، ويجرؤ على الارتجال في الاجتماعات نحس أن الثاني شخصية ليست للأول، ويجب أن نلاحظ هنا أن التفوق في الكتابة لا يعني بتاتًا التفوق في الخطابة.

وقد أحدث العصر الحديث قيمة للاجتماع، فنحن نجتمع في البرلمان واللجنة والمجلس البلدي والجمعية الخيرية، بل نجتمع في البيوت ضيوفًا زائرين ومزورين، فيجب أن نُعنَى بالإلقاء ونتمرن عليه، وقد كانت سُنَّة الانحطاط الشائعة في بلادنا منذ خمسين سنة تقتضي من المرأة أن تقعد خرساء مكتوفة اليدين، حتى يقال: إنها مهذبة، أما الآن فسُنَّة الارتقاء تقتضينا مطالبة المرأة بالحيوية والقدرة على النطق والأداء، ونحن نقدر

شخصيتها بكلامها وليس بصمتها، فيجب أن تتمرن هي أيضًا على الإلقاء والحديث.

(٣) الثقافة واللغة

حين يعمد الشاب إلى ترك عاداته الانفرادية ويجتمع بغيره من الشبان، بل يندمج في المجتمعات المختلفة من الجنسين، وحين يُعنَى بحديثه ولغته ويجود في عباراته، حين يفعل هذا يجد أنه قد حصل على صقل اجتماعي ليس عامًّا بين الشبان، وهو أيضًا حاصل على شخصية اجتماعية مقبولة إلى حد ما، ولكن يجب عليه ألا ينسى أن هذا الصقل هو في أكثره مرانة جسمية، وهو من هذه الناحية دون المرانة النفسية التي حصل عليها بالصقل من الداخل؛ أي: بالنمو الثقافي.

وقد سبق أن قلنا: إن الشخصية تنمو بتحمل المسئوليات، وعلى قدر هذه المسئوليات يكون النمو كمًّا ونوعًا، والثقافة تعد من المسئوليات العالية التي تنقل الفرد من همومه الصغيرة المحلية الخاصة إلى الهموم العامة الكبرى، فهو يقرأ الجريدة ويندغم في أخبارها السياسية التي تشمل العالم، ويأخذ على نفسه همومًا ومشاغل عالمية تتحيز مكانًا من نشاطه الذهني كل يوم، ولسنا نعني هنا قراءة اللت والعجن في المجلات الأسبوعية، وما فيها من قيل وقال وسائر تلك التفاهات التي لا يرضاها غير صبي أو شاب لا تزيد سنه العقلية على عشر سنوات، وإنما عني قراءة الجريدة التي تزودنا بالأخبار السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتغير بها

العالم كل يوم، وذلك كي نتغير نحن أيضًا؛ أي: لا نبقى جامدين في عالم متغير متطور، بل كذلك المجلة التي تحاول أن تنيرنا عن تطور الحوادث بأقلام ليست فقط نزيهة، بل فهيمة، تدرك الأبعاد للحوادث والقيم للتطورات.

ويمكن التمييز بين شابين أحدهما يداوم على قراءة المجلات التافهة، وهو في حديثه يقص على إخوانه ما قرأ من قصص ليس لها أي دلالة، وبين آخر قد اهتم بالسياسة العالمية يقارن بين نهضة الهند ونهضة مصر، وبين الاشتراكية والديمقراطية، وبين التعليم الإلزامي والتعليم الابتدائي، فإن الأول صبي فج الشخصية راكد جامد، والثاني شاب ناضج الشخصية نامٍ متطور، وفي اجتماع الاثنين يقعد الأول تلميذًا متواضعًا مستمعًا للثاني.

ونحن نعيش في عصر انفجاري قد تغلبت فيه الثورات على التطورات، ولذلك فإن الجريدة النزيهة التي تكتب بفهم وإدراك تعد من أقوى الوسائل للثقافة؛ أي: للتغيير النفسي والنمو الشخصي، ويجب أن يُعنَى كل شاب باختيار جرائده ومجلاته من الطراز الأول في لغته أو اللغة الأجنبية، وأن يغيرها كلما رأى فيها انحطاطًا أو تغيرًا شينًا؛ لأنه إنما يعيش في عصره بمقدار ما تعكس الجريدة أو المجلة شئون هذا العصر إلى ذهنه.

وقيمة الكتاب في نمو الشخصية لا تقل عن قيمة الجريدة أو المجلة، ونعني هنا بالكتاب ذلك الذي يعالج الشئون العامة عالمية أو قطرية، ويصل بيننا وبين التطور الاقتصادي أو الاجتماعي، ولذلك فإن المكتبة

الحسنة ضرورية للشخصية الحسنة؛ لأنها تنشئنا وتحملنا مسئوليات إنسانية سامية، ولسنا بالطبع نقصد إلى الانزواء في المكتبة والتعلق بالقراءة، والانعزال غرامًا بالكتب؛ لأننا بهذه الخصال نكسب الثقافة ولكننا نخسر الشخصية؛ إذ إننا نبتعد عن المجتمع، والشخصية هي كما سبق أن كررنا صفة اجتماعية تخصب بالاجتماع وتجدب بالانفراد.

ولكن يجب ألا يفهم القارئ أننا نقصد إلى أن الحذلقة السطحية في الثقافة خير من تعمقها، كلا فإن الحذلقة سرعان ما تُكشف، ولكنا نقصد إلى أن التعمق يجب ألا يحملنا على خصال الانفراد والانزواء في المكتبة، وهذا كثيرًا ما يحدث، وقد يكون انتفاع العالم بهذا المنعزل المتعمق الذي هزلت شخصيته بقلة الاختلاط أكبر جدًّا من انتفاعه بالاجتماعي الممتاز بالشخصية، ولكن هذا البحث ليس موضوع كتابنا، ونستطيع أن نقول: إنه عند النظر الدقيق والتأمل العميق نجد لهذا المتعمق للثقافة شخصية في غاية السمو والعظمة، ولكن الذين يدركون سموها قليلون، وهم في العادة من طبقته، ونحن نريد بالشخصية تلك التي يُقدرها الرجل العادي في أوساطنا الاجتماعية المألوفة.

وقد سبق أن أوضحنا قيمة اللغة في التعبير الحسن وإبراز الشخصية، وهنا يجب أن نوضح قيمتها في النمو الثقافي، فإن الفهم نوعان: فهم سلبي؛ وهو أن نفهم على قدر ما نقرأ فنساير الكاتب في آرائه ونقتنع بأقواله، وفهم إيجابي؛ وهو أن نتجاذب مع الكاتب الموضوع فنأخذ ونُعطي ونقبل ونرفض، وهذا هو الفهم الخالق، وعندئذ نحن نقرأ وكأننا

نؤلف، ولن تكون هذه حالنا إلا إذا عرفنا دقائق اللغة، وميزنا بين تماويه الكاتب التافه وزخارفه – وما أكثرها في جرائدنا ومجلاتنا وكتبنا – وبين الدراسة الجدية والخدمة الأمينة للقارئ.

واللغة هي تراث حافل بالسخيف والسمين والدقيق المضطرب من المعاني، وأول درجات الثقافة أن نكون على معرفة حسنة باللغة نقرأ ما بين السطور وما وراء الكلمات، ونتعود الدقة في الفهم، ثم بعد ذلك يجب ألا نستهتر في الثقافة فلا نختطب المعارف من أي مكانن ولا نقرأ كلما اتفق؛ لأن هذه الفوضى لا تُنمي الشخصية.

(ولكن يجب هنا أن أقول: إن المبتدئ الذي لم يتعود القراءة، ولم يفتن بالكتب يمكنه، إذا لم يجد النصحية الأمينة، أن يضرب في الفوضى الثقافية ويقرأ كلما اتفق له، ثم يختبر نفسه ويسأل: ماذا كسبت من قراءة هذه المجلة أو هذا الكتاب؟ وهو يحسن إذا لخص كل كتاب في كراسة؛ لأنه عندئذ يعين فائدته ويقدرها، ويترع إلى القراءة النافعة ويميزها).

وخلاصة هذا الفصل أن التدريب اللغوي والنمو الثقافي هما مرانة نفسية لتربية الشخصية وصقل داخلي لها، وتزداد قيمتها بالتقدم في السن؛ لأن المثقف تكفه عادة القراءة من ناحية عن عادات أخرى كالشراب أو المقامرة، وهي من ناحية أخرى تُكبِّر شخصيته بالنمو الثقافي المطرد.

(٤) التمثيل

من أحسن البدع الجديدة في المدارس إنشاء فرق للمناقشة والخطابة وأخرى للتمثيل، فإن الصبي الذي يجرؤ على أن يتحدث في طلاقة بين إخوانه وأمام المعلم، أو يخطبهم في لغة مرتجلة، يتعود القدرة على الخطابة والجرأة في الحديث، ويكسب لشخصيته كسبًا لن يفقده مدى حياته.

وكذلك فرقة التمثيل، فإن أعظم ما يمتاز به الممثل رشاقة الحركة ولباقة الجواب مع الإيماءة اللائقة واللغة الواضحة، والممثل مثل الخطيب، يقف أمام الغرباء، فيتمرن على الجرأة ويمارس النطق العالي في شهامة وسداد بعيدين عن الركاكة والوجل اللذين يصيبان غير المتمرن في مثل هذه المواقف، ولذلك يعد التمثيل مرانة حسنة لتربية الشخصية، فيجب أن يُشجع في كل مدرسة أو معهد أو نادٍ، ويجب أن تكون له جمعياته وفرقه التي يقودها ممثلون مدربون قد احترفوا التمثيل، كما أن للرياضة فرقها التي يعلم فيها رياضيون محترفون.

وإذا كنا نعرف أن الخجل هو العلة المميتة للشخصية، فإننا يجب أن نسلم أيضًا بأن تعود الخطابة وتعلم التمثيل يشفيان هذه العلة، ولكن إذا كان أحدنا ممن تعلم في مدارس لم تكن تُعنَى بتربية الشخصية، بل لم تكن تعرف بوجود هذه الكلمة، قد نشأ وهو يحس الخجل في المواقف العامة والتردد في النطق، فإنه يحسن إذا هو انتمى إلى أحد الأندية وألف مع إخوانه جمعية للتمثيل، وأدى بعض الأدوار في الدرامات المختلفة، وهو هنا يكسب ثقافة وفنًّا وتاريخًا وأدبًا إلى جنب ما يكسب من تغيير في

شخصيته بما يتعلمه من التمثيل؛ لأن الممثل الماهر يجب أن يدرس درامته ويعيش في عصرها وينقل جوها، وكل هذا يحتاج إلى مجهودات ثقافية غير صغيرة، وبالطبع لا نقصد بالتمثيل تلك السخافات التي تُؤلف أو تُترجم، ويكون الممثلون فيها مهرجين لا ينقصهم لكمال التهريج إلا أن يلبسوا طربوشًا بلا زر ويطلوا وجوههم بالدقيق، وكثير من الدرامات التي يراها الجمهور في مصر من هذا الطراز، وإنما نقصد الدرامة الإغريقية القديمة أو الدرامة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية العصرية.

والمسرح في الأمة الراقية هو ميدان المثليات، ومن هنا قيمة التمثيل السيكلوجية للممثل زيادة على قيمته في تربية الشخصية، ونحن حين نعرف هذه الحقيقة تتضح لأذهاننا حقيقة أخرى؛ هي أنه يجب أن يكون كل منا ممثلًا من حيث إنه يؤدي عمله كما لو كان ممثلًا يُمثل هذا العمل على المسرح، فإننا نعيش ونُؤدي حياتنا في تراخٍ وتثاؤب، بحيث لو سئل أحدنا أن يصعد إلى المسرح ويؤدي هذه الحرفة أمام الجمهور أحس تغيرًا نفسيًّا؛ إذ هو يستبدل بالتراخي والتثاؤب والاستهتار جِدًّا ونشاطًا وهمة، وذلك لأنه يحس أن المسرح يطلب منه الشخصية التي لا تلائم الحرفة.

فالمحامي الذي يقصد كل يوم إلى مكتبه أو إلى المحكمة لا يُبالي هندامه، أو هو قد يسير وهو يدخن سجارته، وقد يقعد إلى مكتبه فيعمل وهو في تراخٍ يشرب القهوة أو يتثاءب، وهو في مرافعته في جلسة المحكمة لا يُوحي إلى الحاضرين أنه يؤدي عمله على أوجه الأمثل، ولكن لو طلب إلى هذا المحامي نفسه أن يصعد إلى المسرح وأن يمثل حرفته لتغيرت

سيكلوجيته؛ إذ هو عندئذ لا يترك صغيرة في هندامه أو لغته أو إيماءته إلا ويُعنَى بهما العناية القصوى، وهذا زيادة على درسه لتفاصيل القضية التي يترافع فيها.

وعلى هذا المنطق يجب أن يكون كل منا ممثلًا في حرفته، وأن يضع هذه الفكرة نصب ذهنه، فإذا كان طبيبًا فليتخيل أنه يمثل الطبيب الأمثل، وإذا كان تاجرًا فليرسم أمام ذهنه التاجر الحسن الناجح، وإذا كان صانعًا فليؤدي عمله كما لو كان ممثلًا فيه.

لقد عالجنا أربعة فصول في المرانة لتكون الشخصية وترقيتها، وهي:

(١) الاجتماع المختلط.

(٢) المناقشة والإلقاء.

(٣) الثقافة واللغة.

(٤) التمثيل.

ونحن حين وضعنا هذه الفصول تخيلنا شابًّا يحس خجلًا ووجلًا، وهو يتروي ويتردد ويعجز عن تحقيق النجاح لهذه الصفات، وهذه المرانة التي شرحناها في هذه الفصول الأربعة جديرة بأن تُكوِّن له شخصية، ولكن يجب ألا ننسى أن هذه المرانة تُكوِّن ظواهر الشخصية وليس بواطنها.

ولسنا مع ذلك نستصغر شأن الظواهر، ولكن يجب ألا ننسى أن العمود الفقري لهذا الكتاب هو «المسئولية» التي هي فيتامين الشخصية،

والشاب الذكي الذي يختلط بالمجتمع سيحمل همومه، ويجد في هذه الهموم همة تدفعه إلى تحمل مسئوليات جسيمة هي التي تُكوِّن بواطن شخصيته، وعندئذ تنبع شخصيته من الداخل ولا تنحدر إليه من الخارج، وهنا ثلاثة فصول تالية لمرانة سامية تعد شاقة بعض الشيء لتكوين الشخصية العالية، هي:

(١) اعتياد عادات جديدة.

(٢) الهواية.

(٣) الدفاع عن قضية عادلة.

(٥) اعتياد عادات جديدة

الشخصية الراقية ليست راكدة أو جامدة؛ لأن كلمة «الرقي» تعني التغير؛ إذ كيف يرتقي الإنسان دون أن يتغير؟ فنحن نرتقي بأن ننتقل من حال منخفضة إلى حالة مرتفعة، وهذا يعني في النهاية أن نكون على الدوام راضين عن التغير بل راغبين فيه.

وكثيرًا ما نرى جمود الشخصية أو ركودها واضحًا في أولئك الذين يظنون أنهم يلتزمون التقاليد، فيكرهون التغير أيًّا كان وجهته، وكثيرًا ما يكون الجمود ناشئًا من خمود الحيوية؛ لأن كل تغيير يحتاج إلى مجهود، وإذا ضعفت الصحة خارت الهمة، ومن هنا كراهة المسنين للتغير؛ لأن الشيخوخة هامدة قد انطفأت فيها حيوية الشباب.

ولكن الشاب الذي ينشد شخصية ناجحة يجب أن يكون على استعداد دائم للتغير، وقد يكون التزام عادات معينة تؤخره وتستهلك وقته وماله وصحته، فهو جدير بأن يفحص عن هذه العادات ويقومها واحدة بعد أخرى من حيث نفعها أو ضررها لشخصيته، فإذا اقتنع بأنها مضرة كف عنها وأخذ في اعتياد عادة جديدة تُنمي شخصيته وترقيها.

ولكنا لا نستطيع أن نتغير إلا إذا تكونت عندنا الإرادة للتغير، وهذه الإرادة لا تنشأ إلا بعد الاقتناع بضرورة التغير، والاقتناع هو أول درجات التغير؛ لأنه يُحدث الرغبة ثم تتحول الرغبة إلى إرادة، فليست الإرادة شيئًا يقتسر جبرًا وقهرًا للنفس، وهي لو تمت على هذا الغرار لكان ضررها أكبر، وإليك المثل التالي للتوضيح:

شاب قد اعتاد الخمر، وهذا يعني أنه يحبها، وإذا جاء ميعادها لم يطق الإحجام عن الكأس، فإذا حمل نفسه قهرًا على الامتناع عنها أضر نفسه؛ لأن إرادة الشراب قد كظمت فهي محبوسة فقط مستعدة للانفجار في أي وقت، وهذا الانفجار يعني أنه قد يرجع إلى الشراب بعد وقت قصير أو طويل، بل هو يرجع عنيفًا، كأنه يثأر للحرمان السابق، ولكنه يمكنه أن يمتنع عن الخمر بالدرجات التالية:

(١) الاقتناع بأن الخمر مضرة، وطريقة هذا الاقتناع أن يوضح الأسباب لنفسه، كأن يشرح – كتابة – الأضرار المالية والصحية والحرفية، ثم الضرر في شخصيته، ويتابع التوضيح لهذه الأضرار يومًا بعد يوم، بل هو

يُحسن كثيرًا إذا استطاع أن يعرف الأسباب التي حملته على حب الخمر ويحللها تحليلًا نفسيًّا.

(٢) عندئذ تنشأ رغبة عامة في نفسه لكي يتغير.

(٣) رويدًا رويدًا تستحيل هذه الرغبة العامة إلى إرادة خاصة كي يتغير ويكف عن الخمر، وعندئذ يجد نفسه قد أقلع فجأة عن عادته.

(٤) يجب ألا يقف التغير عند الناحية السلبية؛ أي: الانعكاف عن الخمر فقط، بل يجب التجاوز إلى الناحية الإيجابية، بإيجاد عادة أخرى تقوم مقام الخمر حتى يمتلئ الفراغ النفسي.

وكذلك الشأن في العادات السيئة الأخرى التي تُؤخر نمو الشخصية، مثل العادة السرية أو التدخين أو المقامرة، فإنه لكي تتكون الإرادة يجب أن يسبقها اقتناع بضرورة التغيير، وهذا الاقتناع ينشأ بعد مراقبة من الإنسان أمام محكمة ضميره، يبين فيها الأضرار من هذه العادات، ويكون الإيضاح لهذه الأضرار كتابة وشفاهًا حتى يتم الاقتناع.

ومن أفضل الوسائل لإيجاد العادات الجديدة التي تتغير بها شخصيتنا، ونستطيع بها أن نمحو العادات القديمة السيئة أن نضع البرامج المفصلة لآجال طويلة نحقق بها غايات معينة، فليكن لكل شاب برنامج السنوات الثلاث أو الأربع على النحو التالي مثلًا:

(١) برنامج سنة أو سنتين لتحسين الصحة واعتدال القوام وزيادة القوة، وذلك بالانضمام إلى أحد الأندية التي تُعنَى بتثقيف الجسم، ومن الحسن

أن يكون ميعاد هذه المرانة هو نفسه ميعاد العادة السيئة لملء الفراغ، ولكي تبرز الفائدة فيزيد الاقتناع وتقوى الإرادة.

(٢) برنامج لثلاث سنوات لزيادة الثقافة، وذلك بتعيين جريدة يومية ودراسة موضوع أو موضوعين، مثل اللغة الفرنسية، أو الانتساب لإحدى الكليات والانتظام في برنامجها الخاص بغية الحصول على شهادة جامعية، ومتى تقدم الشاب في هذا البرنامج وجد نفسه قد أخذ بعادة الثقافة؛ فلن تمضي عليه سنوات حتى تكون له مكتبة، وحتى تتكون له علوم ثقافية سامية، هي خير ما يكسب في هذه الدنيا، وأسمى ما يُرقِّي شخصيته.

(٣) برنامج اجتماعي لسنة أو سنتين يترقى به، من التزام أصدقاء معينين لا تكون الفائدة كبيرة بقضاء الوقت معهم إلى التعرف إلى أصدقاء آخرين أرقى وأنفع، وذلك بالزيارات وترقية الضيافة.

(٤) بل كذلك يمكن إيجاد برنامج عائلي غايته ترقية العلاقات الزوجية على أساس جديد من التعاطف والمعيشة الجميلة وتجديد الأثاث وتربية الأولاد، فإن العائلة مجموعة من الشخصيات ترتقي باعتياد عادات جديدة في المعاملة بين بعضها البعض، وفي اتصالاتها بالضيوف، والبيت الحسن هو معهد حر للرأي والمناقشة، وهو عندئذ يُربِّي الشخصية، كما أنه متحف فني يُرقِّي الذوق.

وخلاصة هذا الفصل أن الشخصية الراقية تحتاج إلى اعتياد عادات حسنة جديدة تزيد رقينا، وخير ما يهيئنا لهذه العادات أن نضع البرامج المفصلة نؤديها في سنة أو أكثر؛ لأن البرامج مرانة تهيئنا للعادة الحسنة، والعادة الحسنة تُكوِّن الشخصية الحسنة.

(٦) الهواية

وضعت هذه الكلمة لكي أعبر بها عما يسمونه في الإنجليزية «هوبي»، أو ما كنا نسميه باللغة العامية «غية» من الغاوي الذي يهوى عملًا ويكب عليه، ولو لم ينتفع منه، بل لعله يستضر إذا نظرنا إلى الفوائد المادية، وهو إنما يقبل عليه؛ لأنه يسد في نفسه حاجة أو يشبع شهوة ذهنية، فهناك هواة الحمام أو الخيل، وهواة التحف الفنية، بل هناك من يجعل غرس الأشجار للزينة أو العطر هوايته، كما أن هناك ألوانًا متعددة من الهوايات؛ فإن الموظف الذي يحترف الكتابة في مصالحة الحكومة قد يهوى النجارة، ويؤسس له ورشة صغيرة في البيت يلجأ إليها في فراغه، ويصنع فيها الكراسي أو الموائد أو غير ذلك ... إلخ.

والهواية ضرورية في عصرنا وخاصة للطبقة المتوسطة والطبقة العالية؛ وذلك لأن الفراغ كثير عند هاتين الطبقتين؛ إذ قلما يزيد العمل الواجب على ست أو سبع ساعات في اليوم، ففي سائر اليوم نحو مثل ذلك الوقت من الفراغ الذي يجب أن نشغله بعمل ما، والطبيعة تكره الخواء وتُسارع

إلى ملئه، فإذا لم نملأه نحن بعمل صالح مفيد يرقينا، فإنها تملؤه بالطالح من العادات السيئة والخواطر الفاسدة.

ثم إننا في مجتمعنا الحاضر كثيرًا ما نحترف العمل الذي نكره، ونحن نرضاه مضطرين للكسب فقط، وقد تكون لنا في أعماق نفوسنا رغبات أخرى كنا في صبانا وشبابنا نتحرق لكي نحققها، ولكن الظروف حالت دون ذلك، وهذه الرغبات لا تفتأ مستقرة في العقل الباطن تجمح بنا من وقت لآخر، وقد تحملنا على إهمال حرفتنا أو على السأم منها والكراهية لها، وفي هذا ضرر كبير بمعيشتنا.

والعقل الباطن يبقى في صراع لا ينقطع مع العقل الواعي، ولكنا عندما نعمد إلى هذه الرغبات فنحققها هواية نخصها ببعض وقتنا أو مالنا، نستطيع أن نعيش سعداء راضين عن عملنا الذي نحترف، وإن كرهناه بعض الشيء، ومقبلين على هوايتنا التي تسد فراغنا.

ولكن ما قيمة هذا في تنمية الشخصية؟

قيمته كبيرة بل جليلة، فإن الشخصية تحتاج إلى الاتزان وإلى العادات الحسنة وإلى النمو الثقافي، والاتزان يحتاج إلى أن يكون العقلان الواعي والباطن على سواء، ليست بينهما حرب، هذا يؤدي عملًا للكسب والآخر ينشد التحقيق لرغبات قديمة راسخة، ولا يمكن الاتزان للشخصية ما لم يكن العقل الباطن راضيًا، أو على الأقل ليس ساخطًا إلى حد الثورة، وبعيد جدًّا أن نجد شخصية متزنة سليمة لشاب غير سعيد في

عائلته أو عمله أو مجتمعه؛ لأنه في هذه الأعمال جميعها يضطر إلى أن يداري ويوارب وهو يتعب وينفق مجهودًا في كل ذلك، والأصل في هذا التعب أنه مضطر إلى أن يبدو خاضعًا لعقله الواعي، راضيًا بالمظاهر، ساكنًا عن مساخط يكبتها العقل الباطن ويعبر عنها في لطف أو عنف، والشخصية تضطرب في هذه الأحوال جميعها.

وليس بيننا من يستطيع أن يقول: إنه يجد كل ما يشتهي في المجتمع والعائلة والحرفة، ولذلك فإن الهواية ترفه عنه، وتفتح لعقله الباطن أبوابًا للنشاط حتى يعود الاتزان لشخصيته، والكظم الذي تثقل وطأته علينا نفرج عنه بالهواية، نمارسها في فراغنا أحرارًا، ليس علينا رقيب يستعجلنا أو يحد منها، وهي من ناحية تحول بيننا وبين مفاسد الفراغ من عادات سيئة، أو من التراخي وقضاء الوقت في تثاؤب على القهوة أو في البيت إلى تعلم القمار أو تعود الخمر؛ إلى غير ذلك، كما أنها تتيح لنا الرقي، فهناك هوايات كثيرة تضطرنا إلى الدرس، فإن من يهوى غرس الأشجار يجد صحة وثقافة في هوايته، ومن يهوى الرسم ودراسة أحد العلوم أو تربية الحيوان ينتفع كثيرًا بهذه الهوايات، ونحن حين نقعد إلى أحد الذين جعلوا من تربية الحمام هواية مثلًا نجد في حديثه من المعارف النادرة ما نتعجب له، وعندما نقعد إلى شاب هوي غرس الأزهار لا نكاد نشبع من حديثه أيامًا متوالية؛ لوفرة معارفه الفاتنة عنها.

ونحن عندما نتعرف إلى أحد الناس لا نستطيع أن نعرف أخلاقه، ونقدر شخصيته من العمل الذي يحترف ويتكسب منه؛ لأن لكل عمل

مراسًا خاصًّا يكاد لا يتميز إلا قليلًا من شخص إلى آخر، ولكنا نقدر هذه الشخصية من الطريقة التي يقضي بها فراغه، ومن انتفاعه بهذا الفراغ، فإن الفراغ هو الذي يُكيف شخصيته، فهو سمين مترهل أو نحيف متفزز، وهو مثقف أو جاهل، وهو اجتماعي أو انفرادي، وهو نشط الذهن أو خامله، ومن الطريقة التي يستغل بها فراغه أكثر من العمل الذي يحترف.

فالهواية تُقوِّم الشخصية وتثقف الذهن، وهي لهذا السبب مرانة حسنة لتربية الشخصية وترقيتها، فيجب أن يكون لكل شاب هواية، فالشاب الذي يبدأ بالتعلق بالقراءة واقتناء الكتب لا يلبث بعد سنوات أن يجد نفسه يملك مكتبة فاخرة يعتز بها، كما يستنير منها، والشاب الذي يهوى جمع التحف قد ينتهي بعد عشرين سنة مثلًا إلى اقتناء مجموعة تقدر بألوف الجنيهات، وهو في غضون هذا الجمع يدرس الفنون أو العاديات، والشاب الذي يهوى التجارة أو الهندسة الكهربائية أو الميكانيكية يجد نفسه بعد سنوات وهو أستاذ ناضج في ذهنه.

ويمكن للقارئ الحائر أن يسأل عن بعض المجلات الأمريكية التي تتخصص في معالجة الهوايات، وقد لا يجد فيها هوايته، ولكنها تفتح ذهنه لغيرها، ومهما تكن الهواية قليلة القيمة المالية فإنها كبيرة القيمة النفسية؛ لأنها تصالح العقل الباطن عن شهواته فتمنع التصادم بينه وبين العقل الواعي؛ وبذلك تتزن الشخصية وتستقيم وتنأى عن الانحرافات.

(٧) الدفاع عن قضية عادلة

خصصنا هذه الفصول لدراسة العيوب النفسية أو حتى الجسمية لتقوية الشخصية وترقيتها، وكما أن الألعاب الرياضية تُقوي العضلات الضعيفة، وتُكسب القامة العوجاء اعتدالًا، كذلك الرقص والخطابة والاجتماع المختلط وإجادة النطق واللغة والتمثيل والهواية؛ كل هذه تصلح ما اعوج من الشخصية وتُرقيها وتنميها.

ولكن يجب أن نكرر للقارئ أن أساس الشخصية هو المسئولية، وإذن لا معنى للشخصية في غير المجتمع؛ إذ هي قبل كل شيء صفة اجتماعية، وعلى ذلك يجب أن نقول: إن الدفاع عن قضية عادلة عامة يقدم لنا المرانة التي نحتاج إليها لتقويم الشخصية؛ لأنه يصل بيننا وبين المجتمع، ويحملنا مسئولية سامية، وهذه المسئولية نفسها تبعثنا على التفكير والدرس.

ونحن نقصد بالدفاع عن قضية عادلة عامة أن تكون لنا في حياتنا مثليات وأهداف عملية قريبة التحقيق، يستطيع أحدنا أن يحس أنه بنشاطه وخدمته يمكنه أن ينتهي منها إلى غاية مفيدة للمجتمع، وقد سبق أن تكلمنا في الباب السابق بالفصل التاسع عن «الأهداف والمثليات» وقلنا: إن الرجل الذي يصل إلى هذه الدرجة من الشخصية، ويجد نفسه مسوقًا إلى خدمة المثليات البشرية العالية يعد على القمة من حيث كمال الشخصية، والآن نقول: إننا إذا وجدنا شابًّا لا يسترشد في حياته بمثليات وأهداف فعلينا أن ننصح له بأن يخلقها، وذلك بأن يختار قضية عادلة

عامة يُدافع عنها، ويجعل من هذا الدفاع مرانة تُرقي شخصيته، وهو بالطبع يجب أن يختار هذه القضية بحيث تأتلف وشخصيته.

وفي بيئتنا المصرية مجال كبير لهذا النشاط؛ لأننا نحمل تراثًا ثقيلًا من التقاليد الحائرة والمظالم المركبة الاجتماعية والاقتصادية والعائلية، بحيث ينشأ شبابنا وهو يواجهون الدنيا في خوف، كما أن العصر الحديث قد غزانا على غير استعداد، وأفشى بيننا فوضى اقتصادية عممت الفقر، بل الحرمان في عدد كبير من السكان، وجر هذا الحرمان في أثره كوارث من الجريمة والمرض والبؤس، والشاب الذي يأخذ على عاتقه أن يكافح هذه المظالم أو يزيح عنا أعباء التقاليد الثقيلة يجد المرانة لترقية شخصيته؛ لأنه يحمل رسالة تكون له بمثابة العنوان في المجتمع، ينتسب إليها ويُعرف بها، وبمثابة الحافز على الدرس والرقي الثقافي، والقضية العادلة هي «هواية» سامية على المستوى العالي، ومرانتها نفسية أكثر منها جسمية، والشاب الذي ينتمي إلى جمعية الرفق بالحيوان، ويجمع لها التبرعات، ويشترك في اجتماعات أعضائها، ويقرأ تقاريرها، ويزور مستشفياتها؛ يكسب كثيرًا من هذه الرياضة النفسية، ولكن هناك ما هو أرقى وأعم فائدة وأبعث على النشاط النبيل: مكافحة الاستعمار أو التشرد أو التعطل أو الخمر أو الفقر أو الإجرام، ومثل: منح المرأة الحقوق المدنية والدستورية، ومثل: تحقيق الاستقلال لمصر، أو حتى الهند أو ترقية الزنوج أو إلغاء الحروب أو تأييد عصبة الأمم أو الدعوة للسلم.

فكل من هذه الشئون يعد قضية عادلة عامة، والشاب الذي يشتغل بها يجد نفسه مضطرًا إلى الدرس؛ لكي يعرف الأسباب والنتائج، فهو يترقى في ثقافته، وقد يحمله نشاطه على الخطابة للدعاية، فيجد مرانة أخرى تُكبِّر شخصيته، ثم هو يتصل بالمجتمع في أسمى همومنا وأشرفها، فيحمله الاختلاط على ألوان أخرى من الرقي، وهو يحس مسئولية عالية في الدفاع عن إحدى هذه القضايا العامة.

ونحن هنا إزاء مثليات وأهداف، ولكنها قريبة الغاية ممكنة التحقيق، تصل إلى قلب الجمهور وتثير اهتمامه، فالمشتغل بها يحس أنه نافع للمجتمع، وأنه يكبر بمقدار ضخامة المسئولية التي يتحملها، وأنه يدرس ويوالي التعرف إلى طبقات وأفراد من المجتمع تزيد ذهنه ذكاء ونورًا، ويجب أن نذكر الصفة الاجتماعية للذكاء مثل: الشخصية، فالمشتغل بأحد الشئون العامة يجد التدريب لذهنه وشخصيته معًا.

وإذا كان الشاب لا يجد من الظروف المحيطة به ما يبعث نشاطه لهذه الخدمة الاجتماعية، فعليه أن يخلق هذه الظروف، وعليه أن يقنع بالميدان الصغير يبتدئ به ثم ينتهي منه إلى ميدان أكبر، فالشاب الذي يجمع الصبيان في الشارع الذي يسكن فيه ويعلمهم ساعة، ويخصهم بفناء للرياضة واللعب والتسلية، يجد في هذا الميدان الصغير مجالًا للخدمة العامة سوف يكبر وينمو، كما أن شخصيته هو ستكبر وتنمو مع هذه الخدمة، ومن الهدف الصغير نصل إلى الأهداف الكبيرة.

(٨) تلخيص

في الفصول الثمانية السابقة نظرنا إلى الشخصية من حيث إنها مرانة يمكننا أن نتمرنها فننميها ونرقيها، وبما أن الشخصية تحتاج إلى الاجتماع وإلى المسئولية، باعتبارهما الركنين الأصلين في نموها، فإننا بدأنا بشرح قيمة الاجتماع عامة والاجتماع المختلط خاصة، ثم بينا أثر المناقشة والإلقاء واللغة، وقيمتها جميعًا اجتماعية، ثم عقدنا فصلان للرقص وللتمثيل من حيث إنه مرانة للشخصية الجامدة أو المرتبكة، وجميع هذه الفصول ترمي إلى جعل الشاب اجتماعيًّا على شيء من المهارة في اللغة والإيماءة والحديث مع الرشاقة والبشاشة، ولكن العمود الفقري للشخصية هو المسئولية، وقد عقدنا ثلاثة فصول عن إيجاد المسئولية باعتياد عادات جديدة وباتخاذ هواية، وأخيرًا – وهو الأهم – الدفاع عن قضية عامة عادلة إلى مثليات عاليه.

وهذه الأنواع من المرانة جديرة بترقية الشخصية مهما كان ضعفها في الأصل.

الفصل الخامس

الشخصية والنجاح

(١) الشخصية الإنسيابية.

(٢) الشخصية الناجحة.

(٣) العادات والشخصية الناجحة.

(٤) كأنك ناجح.

(٥) ارسم خارطة حياتك.

(٦) اختر مهنتك.

(٧) الهواية والألعاب.

(٨) جيته: الشخصية الكاملة.

(٩) تلخيص.

(١) الشخصية الإنسيابية

نحاول في هذه الفصول التالية أن نصف الشخصية الناجحة، ونقصد من النجاح هنا النجاح المألوف في الطبقة المتوسطة، وهو يحتاج قبل كل شيء إلى التلاؤم مع البيئة التي يعيش فيها الإنسان، وهناك ألوان سامية من النجاح ليست موضوع هذا الكتاب؛ لأننا ننصب أمام ذهننا شابًّا عاديًّا لا يطمح إلى أن يكون نابليونًا، ولا يبغي أن يضحي بنفسه مثلًا من أجل السلام العام أو هيئة الأمم، فإن هذه التضحية قد تعد بمقياس آخر نجاحًا إنسانيًّا عظيمًا رائعًا، ولكنها ليست موضوعنا؛ لأننا نرمي إلى وصف الخصال التي يحتاج إليها التاجر الناجح والموظف الناجح ورب العائلة الناجح؛ ونحوهم.

والنجاح يحتاج إلى الشخصية الإنسيابية، فقد فشت هذه الكلمة في وصف الأتومبيل الذي لا تبرز له حروف كأنها سدود تواجه الريح وقت السير، فتؤخر السرعة للمقاومة التي يحدثها الأتومبيل للريح، ومن الحسن أن ننقل هذا المعنى إلى الشخصية، فإن هناك شبانًا يسيرون في حياتهم وكأن لهم حروفًا بارزة تصطدم بالوسط الذي يعيشون فيه، فهم ليسوا إنسيابيين يتخللون الوسط في سهولة بلا مقاومة، بل هم يصطدمون ويقاومون ويتأخر نجاحهم لهذا السبب.

وإذا عرف الشاب حروفه البارزة؛ أي: مقاوماته التي تُحدث الاصطدامات، فإنه يمكنه أن يعالج نفسه منها بالتنبه الدائم لها، والتفادي من الوقوع فيها، ونحن فيهما يلي نذكر بعض هذه المقاومات:

(١) فهناك مثلًا مركب النقص الذي سبق أن ذكرناه، فإن الشاب الذي يعيش بهذا المركب يخجل ويخاف ويعتزل ويكره الاختلاط، وينكمش أمام الفتيات أو السيدات، ويعد نفسه عاجزًا عن دراسة موضوع معين أو تحقيق غاية منشودة، مثل هذا الشاب قد وضع لنفسه سدودًا يقاوم بها أي نجاح؛ لأنه يجد أن الناس لا يثقون به، وأنهم يحسون فيه شخصية خشبية، ثقيل الروح، يتجنبونه ولا يجدون فيه أي مبرر لمساعدته، وهو لهذا السبب انفرادي في بيئة اجتماعية، وعزلته التي رسمها لنفسه بهذا المركب قد حملته على أن يُهمل شئونًا كثيرة ما كان ليهملها لو كان خاليًا من هذا المركب؛ فهو يهمل هندامه واعتدال قوامه ولغته، بل ربما نظافته، فضلًا عن أنواع الرقي الأخرى؛ لأن جميع هذه الصفات اجتماعية.

فالشخصية الإنسيابية تحتاج قبل كل شيء إلى أن نتخلص من مركب النقص، وعلى كل شاب أن يعرف ما هو مركب النقص الذي يشكوه وأن يعالجه.

(٢) سبب آخر يعوق نمو الشخصية الإنسانية هو الرغبة في الخيبة، وهذا التعبير قد يدهش القارئ الذي يعتقد أننا جميعًا نرغب في النجاح ونتوقى الخيبة، ولكن حقائق التحليل النفسي تدلنا على أن الرغبة في الخيبة قد لا تقل في بعض الأحيان عن الرغبة في النجاح، بل أحيان تزيد، والبرهان على هذا أن هناك أشخاصًا يقدمون على الانتحار الذي يعد أعظم ضروب الخيبة؛ لأن المنتحر هو أبعد الناس عن التفكير في النجاح، ويرى

«فرويد» بحق أن في كل منا نزوعًا إلى الموت، وأننا نطلبه بضروب مختلفة غير الانتحار الصريح، وهذه الضروب تتخذ الرغبة في الخيبة كأنها الموت الاستعماري أو المدني، وأي إنسان يتأمل نفسه في دقة يجد أنه في كثير من الأحيان قد لعبت به هذه الرغبة مستورة أو مكشوفة، فيكره النجاح كأنه شيء يلصقه بالحياة ويزيد نموه، فهناك مثلًا ذلك الزوج الذي يكره زوجته ثم يحس أن كل نجاح يحققه سوف يزيد رغد هذه الزوجة والأولاد، فهو يكره نجاحه ويتوقاه، ويُؤثر الفقر على الغنى؛ لأنه يتوقاه ويكره سعادة عائلته، فهنا رغبة واضحة للخيبة، وقد يرجع الانتحار إلى مثل هذا السبب؛ أي: أن المنتحر يريد أن ينتقم بأن يحرم زوجته أو أباه أو أمه وجوده، فالرغبة في الخيبة هنا واضحة.

وكثيرًا ما يستر الراغب في الخيبة رغبته بزعمه أنه عاجز عن النشاط الذي يطلبه الجهد للنجاح، أو أن هناك أخطارًا متوقعة، وكل هذه أوهام ينصبها هو لنفسه؛ لكي يبرر موقفه.

وفي كل هذه الأحوال يحتاج الإنسان إلى أن يعرف الأسباب التي تحمله على توقي النجاح، واختلاق الأعذار للرضى بالخيبة.

ومما يعوق الشخصية الإنسيابية أن يتعود الإنسان عادات مؤذية تستهلك وقته وصحته وماله؛ مثل: القمار والشراب وقتل الوقت بألعاب الحظ على المقهى، أو في ميادين السباق، أو الصيد ونحو ذلك، وقد يرجع الابتداء في الوقوع في هذه العادات إلى الرغبة في الخيبة، فإن المقامر لا يطلب على الدوام الكسب؛ إذ هو يندفع إلى القمار بالرغبة في الخسارة

من حيث لا يدري؛ لأن هناك اتجاهًا انتحاريًّا وإيثارًا للخيبة على النجاح، وكذلك الشأن في الخمر، فإن المبتدئ في الشراب قد تندس في أعماق نفسه شهوة للموت عن سبيل الخمر، ولكن بعد أن يعتاد هذه العادة، وحين تمضي عليها السنوات، لا يكاد يذكر أسبابها الأولى، وحتى عندما يعرف هذه الأسباب بالتحليل يحتاج إلى أن يتخلص من العادة باعتبارها عادة فقط، فيجب أن يعالج نفسه منها.

والعادات السيئة التي تعوق النجاح كثيرة، وهي تتفاوت في سوءها؛ مثل: الإدمان في التدخين أو الخمر أو الشهوات الدنيئة من الأكل الكثير، إلى قتل الوقت بقراءة القصص السخيفة والمجلات الأسبوعية، إلى المقامرة، إلى الالتذاذ من المشاجرات الصغيرة؛ إلى غير ذلك؛ فإن في كل هذه العادات رغبة أصلية في الخيبة، ثم بعد ذلك صارت العادة.

والشخصية الإنسيابية تحتاج إلى التخلص من هذه الرذائل الثلاث: مركب النقص، والرغبة الخبيثة، والعادات السيئة.

وهذه هي الناحية السلبية للشخصية الإنسيابية، أما الناحية الإيجابية فتتضح لنا من الصفات التالية:

(١) تمتاز الشخصية الإنسيابية بالصراحة، فليس هناك تصنع في الكلام أو اللباس أو الإيماء في الحركة؛ لأن التصنع يدل على نقص مستور، وعلى حروف بارزة تحتاج إلى التمهيد.

(٢) وتمتاز أيضًا بالاتزان النفسي، ويجب أن نذكر أن من يشكو من النقص يشكو أيضًا قلقًا نفسيًّا.

(٣) والطموح المعقول الذي لا يترل إلى القناعة بالحاضر، ولا يتجه إلى ما فوق السحب، هو أيضًا علامة إيجابية على الشخصية الإنسيابية.

(٤) وأهم علامة بالطبع لهذه الشخصية هي التلاؤم مع البيئة التي يعيش فيها الإنسان؛ أي: أنه لا يصطدم بالبيئة للمقاومات التي يخلقها في شخصيته.

(٢) الشخصية الناجحة

النجاح اجتماعي في بواعثه ونتائجه، فنحن نرغب فيه أولًا؛ لأننا نعيش في مجتمع نحس أنه يحترمنا أكثر إذا نجحنا، كذلك عندما نحصل على نتيجة النجاح من مقام أو مال نجد أننا لن ننتفع بهذا النجاح إلا بالوسائل الاجتماعية التي أقرها المجتمع، سواء من ناحية اقتناء المترل الفخم أو الأثاث الثمين أو الولائم المطهمة أو ما هو أرقى من ذلك.

وللشخصية الناجحة خصال مختلفة ربما كان أخطرها قيمة القدرة على التعاون مع الآخرين والمصالحة؛ أي: فض التراع بالطرق السلمية التي تنأى عن الخصومة، ونحن نحب أن نعتمد في هذا الفصل على المؤلف الأمريكي ديل كارنجي «كيف نصطنع الأصدقاء ونكسب الناس.» فإن

هذا المؤلف يعيش في بيئة تقدس النجاح، وهو لذلك يدرس هذا الموضوع دراسة التجارب والاختبارات، وقد أسس معهدًا لهذه الغاية، وسننشر فيما يلي القواعد العشر التي يراها أنجع من غيرها لتحقيق الشخصية الناجحة في البيئة الأمريكية:

(١) خير الطرق للانتصار في المناقشة أن نتجنب المناقشة؛ وذلك لأن محدثك لا يطيق أن تنتصر عليه فهو يعاند ويكابر، ولو انتصرت عليه وأقنعته بحجتك لكرهك لهذا الانتصار، ولذلك لن يذعن بالتسليم بطلبك.

(٢) ابدأ الحديث بلهجة الصداقة.

ذلك أن الحديث يتجه من بدايته اتجاهًا معينًا للصداقة أو لضدها، فإذا استعملت العبارات الودية في الأول اصطبغ سائر الحديث بالود، وأصبح من المستطاع أن تصل إلى إيضاح رغبتك بما يلائم محدثك ولا ينفره منك.

(٣) دع الحديث للشخص الآخر.

وهذا؛ لأن الشخص الذي يتحدث ويجدك مصغيًا يرتاح إلى إصغائك له، وهو في حديثه سيندفع نحو سرد الحوادث الشخصية أو العائلية التي وقعت له، وهو يفخر بها ويتبسط فيها، وكل هذا مما يرتاح إليه، وفي هذه الحال يكره أن يرفض طلبك؛ لأنك أتحت له الفرصة للبوح والفخر.

(٤) اجعل محدثك يشعر بأن الفكرة التي تشرحها له هي فكرته الخاصة.

وهذا بالطبع غش أبيض ولكنه مفيد، فإنك عندما ترتئي الرأي يمكنك أن تستدرج محدثك بحيث يتوهم أنه هو الذي ارتأى هذا الرأي، وعندئذ يقبله بل يستمسك به ولا يعارضه.

(٥) لا تقل لأحد أنه مخطئ.

أي إذا رأيت أن محدثك قد أخطأ فلا تتعجل بإظهار خطأه؛ لأنك تهينه بهذا التصريح، وهو لن يغفر لك هذه الإهانة، بل عالجه بالرفق حتى تنتهي إلى إقناعه بالرأي الآخر وكأن هذا رأيه هو.

(٦) إذا أخطأت أنت فسارع إلى الاعتراف بخطأك.

لأن هذا الاعتراف يسره ويجعله في موقف الظافر، وهو موقف يميل به إلى العطف عليك فيتقبل بعد ذلك رأيك.

(٧) اتبع طريقة سقراط في الحوار بأن تجعل محدثك يرد عليك بنعم وليس بلا.

وذلك لأنه إذا قال: لا، فإن كرامته تقتضي بعد ذلك الثبات على الرفض، فاجعل الحديث بحيث يضطر إلى موافقتك في كل ما تقول؛ لأن نفسه عندئذ ترضى وتميل إليك.

(٨) حاول مخلصًا أن ترى وجهة نظره.

وذلك لكي لا تتهمه بخطأ بلا حق، ولكي تقدر أعذاره، ولكي لا تقع في مناقضته بسرعة فيغضب منك.

(٩) اعطف على أفكاره ورغباته.

ويجب أن تكون مخلصًا في هذا العطف، ولكل إنسان أسباب لها وجاهتها عنده لالتزامه آراء وعقائد معينة فلا تتعرض لمصادمتها، بل ابحث عن الأسباب التي جعلته يؤمن بها واعطف عليه لذلك.

(١٠) ناشد فيه البواعث السامية.

كلنا شريف إلى حد بعيد، ولو أنك خاطبت في أحد الناس شرفه وناديته بما فيه من فضائل لوجدت الاستجابة النبيلة لما تناشد، بل هو يُسَر؛ لأنك قد توهمت فيه النبل والشرف، وأصررت على وزن موضوعك بهذا الميزان.

هذه هي الوسائل التي يراها ديل كارنجي ضرورية للشخصية الناجحة، وغايتها – كما قلنا – أن نكون محبوبين يُعتمد علينا في الملمات، وقد يرى القارئ فيها اتجاهًا للتمويه، وهذا ما نراه نحن أيضًا، ولكن المجتمع الذي نعيش فيه قائم أيضًا على شيء كثير من التمويه، ولو كنا نعيش في مجتمع اشتراكي مثلًا لما احتجنا إلى هذه القواعد.

وأسمى من هذا النجاح نجاح الثائر على المجتمع السيئ الفاسد، ذلك الذي لا يُبالي المال والجاه، ولكنه يُبالي الإنسانية والشرف.

(٣) العادات والشخصية الناجحة

العادات ضرورية للنجاح؛ لأن للعادة قيمة كبيرة في الاقتصاد النفسي كما في الاقتصاد الجسمي، فنحن حين نتعود عملًا ننفق عليه من الانتباه والمجهود أقل مما ننفق على أي عمل آخر لم نتعوده، ومهما يكن العمل شاقًّا فإنه يسهل بالعادة، ونحن نبدأ بالعادة نملكها ونتسلط عليها، ثم ننتهي منها بعد سنوات وقد تملكتنا هي وتسلطت هي علنا، فإذا كنا قد تعودنا عادات الفشل والخيبة فإن حياتنا تنساق فيها بسهولة، كما يشق علينا الخروج منها، وإذا كنا قد تعودنا عادات النجاح فإن حياتنا أيضًا تنساق فيها بسهولة، بل نحن عندئذ نجهل كيف نفشل ونخيب.

وعادات النجاح كثيرة جدًّا، وهي تختلف باختلاف المجتمع، ولكنها تتفق في الأصول، فإن الناجح مثلًا:

- يتجنب العادة السيئة في التراخي والنوم الكثير في النهار.
- ويتجنب العادة السيئة في إهمال هندامه.
- ويتجنب العادة السيئة في لغته وحديثه.
- ويتجنب العادة السيئة في الواجبات الاجتماعية.
- ويتجنب العادة السيئة في الاعتزال.
- ويتجنب العادة السيئة في الخمور والتدخين والمقامرة، وقراءة المجلات السخيفة.
- ويتجنب العادة السيئة في كراهة المسئوليات.

وقد تكون هذه العادات قد نشأت من «مركب نقص» لم يعالجه حتى ثبتت فيه ورسخت، فهو في حاجة إلى معالجة هذه العادات، كما أنه في حاجة إلى عادات إيجابية للنجاح؛ مثل:

- العناية بالهندام والحديث.
- العناية بالواجبات الاجتماعية بالزيارات ونحوها.
- الجد والمثابرة واليقظة.
- الاختلاط بالمجتمعات الراقية والمجتمعات المختلطة.
- الأخذ بالثقافة والهواية الراقية لملء الفراغ.
- الاقتصاد المالي دون التقتير.
- المصالحة والخدمة في جميع العلاقات العائلية والاجتماعية.

وجميع هذه العادات عملية، تُمارس كل يوم تقريبًا، ولكن هناك نوعًا من العادات الكامنة هي الميل أو الاتجاه، وهو يبقى كامنًا إلى أن تتاح له الفرصة، فيطفو بل يطفر، مثل الشجاعة والإقدام والجلد والشرف والأمانة، فإننا لا نُمارس هذه الخصال كل يوم، ولكنها ميول أو اتجاهات كأنها العادات الكامنة، إذا وقعنا في أزمة أنقذتنا.

وعندما نتأمل أحد الناجحين نجد أنه قد تعود النجاح كما لو كان اتجاهًا معينًا له، فهو يميل إلى جميع الأسباب والوسائل التي تؤدي به إلى هذه الغاية.

والعادات العملية يسهل على الإنسان أن يتعودها؛ لأنها معينة بالعمل، ولكن كيف يمكن تعود الاتجاهات والميول؟

لا يكون هذا إلا بأن نستخدم أثر النفس في الجسم، ويجب أن نؤمن بأن النفس تتسلط على الجسم، وليس هذا محض عقيدة خرافية، بل هو ثمرة التجارب العلمية، فإن الجسم يبلى ويمرض إذا بليت النفس ومرضت، وهو يصح بصحة النفس، وهناك حالات مثبتة بالتجربة ظهر منها أن عقيدة النفس يمكن أن تحدث بالجسم جرحًا أو عاهة.

فإذا وجدنا شابًّا مترددًا خائفًا خجولًا، وأوضحنا له ضرر هذه الصفات في النجاح، فإننا لكي نعالجه، يجب أن نقوم له بتحليل نفسي لكي نصل إلى البؤرة التي أحدثت له هذه الصفات السيئة، فإذا لم يتيسر هذا التحليل لعوائق خاصة فإننا يجب أن نعمد إلى الاستهواء، بأن نجعله يخاطب نفسه وقت النعاس في المساء والصباح بقوله:

«أنا شجاع، أنا لا أخاف، أنا جريء، لا أخجل».

ويكرر هذه العبارات نحو عشرين مرة في المساء والصباح، ثم يمكنه أن يزيد على ذلك بأن يشرح لنفسه موضوعه كتابةً، وذلك بأن يقعد إلى مكتبه ويبين الأضرار التي تصيبه من التردد والخوف والخجل، ويبين الفوائد التي تعود عليه من الإقدام والشجاعة والجرأة، وهو هنا يقوم ببعض التحليل لنفسه، ولن تمضي مدة طويلة حتى تكون هذه الاتجاهات أو الميول قد انغرست في نفسه.

والشخصية الناجحة تحتاج إلى عادات النجاح، ويدخل في هذه الشخصية الاتجاهات والميول.

(٤) كأنك ناجح

إذا عشت كأنك ناجح فأنت ناجح؛ لأنك إذا ادعيت دعوى وثابرت عليها فإنك تنتهي بالإيمان بهذه الدعوى، وإليك البيان:

لكل عضو من أعضائنا وظيفة يؤديها، والنفس هي مجموعة متآلفة من الوظائف، والجسم هو مجموعة متآلفة من الأعضاء، والمعروف بين الناس أنه إذا تحركت الوظيفة تحرك العضو، ولكن ما ليس معروفًا أنه إذا تحرك العضو تحركت أيضًا الوظيفة.

فنحن نعرف أننا حين نخاف نجري، وحين نُسَر نبتسم، وحين نغضب نعبس ونقطب، فهنا وظائف نفسية في الخوف والسرور والغضب، حركت أعضاء في الجسم؛ مثل: الساقين بالجري، والشفتين بالابتسام، والوجه بالتقطيب والعبوس.

ولكن ما يجب ألا ننساه أيضًا أن تحريك العضو يُحرك الوظيفة، فإذا نحن جرينا خفنا، وإذا نحن عبسنا غضبنا، بل إننا نستطيع أن نقف إحساس السرور إذا وقفنا حركة الابتسام، ونستطيع أن نقف الغضب إذا تصنعنا الابتسام بدلًا من التقطيب والعبوس.

ومعنى هذا أن هناك تبادلًا بين الوظيفة والعضو، كلاهما يُحرك الآخر، بل هناك قول بأن العضو هو الذي يحرك الوظيفة، وليس العكس؛ أي: أننا نحزن لأننا نبكي، ولا نبكي لأننا نحزن.

ومعنى هذا أيضًا أننا إذا تصنعنا عاطفة وحركنا الأعضاء التي تؤديها، وإن كنا لا نشعر بها، لم نلبث بعد تحريك هذه الأعضاء حتى نشعر بها؛ أي: بالعاطفة، ومن هنا الظاهرة المألوفة حين نتضاحك فنضحك، وحين نتباكى فنبكي، وإذا وقفنا موقف الخشوع والوقار أحسسنا إحساس الخشوع والوقار، وإذا وقفنا موقف الخلاعة وحركة الأعضاء التي تؤديها أحسسنا إحساس الخلاعة، وإذا مارسنا الصدقة وأخرجنا القرش من جيبنا وسلمناه للمحتاج أحسسنا إحساس البر، وإذا سرنا في الشارع بجد واعتدال وسرعة أحسسنا إحساسًا يختلف عن ذلك الإحساس الذي نحسه حين نسير بضعف وتراخ وتمهل.

فالعضو يحرك الوظيفة، وما نمارس من عمل يحدث في نفوسنا مزاجًا معينًا يتجاوب مع الأعضاء التي تحركت في ممارسة هذا العمل، فإذا قصدنا إلى النجاح فيجب أن يتحرك الجسم حركات النجاح؛ كي يحدث في النفس مزاج النجاح، والسبيل إلى هذا أن نسلك كأننا ناجحون.

والناجح يبتسم ولا يقطب، وهو يجد في سيره معتدلًا، وهو يستجيب في لباقة ورقة لما يُطلب منه، وهو يُعنَى بلباسه كما يحاول أن يجعل عبارته وإيماءته رشيقتين، وكل هذه الحركات تُحدث في نفسه عواطف النجاح من التفاؤل إلى الاجتهاد إلى الملاطفة والمصالحة إلى النظافة والرشاقة، ثم لا

تلبث هذه الصفات أن تصير عادات نفسية اتجاهية لا تكلفه تصنعًا أو ادعاء، بل هو يؤمن عندئذ بالنجاح ويتجه الوجهات التي تؤدي إليه وتحققه؛ لأنه يجد نفسه وقد مارس كل الصفات التي يترسمها الناجحون، وقد تجنب كل الصفات التي يتجنبونها؛ لأن النجاح عندئذ يصير مزاجه الخاص وسليقته الشخصية، فهو يتفادى كل ما من شأنه أن يضره، ويقبل على كل ما ينفعه.

ونحن نقصد بالنجاح هنا معناه العام، فالتاجر ورب العائلة والطبيب والخطيب والزوج، كل هؤلاء ينشدون النجاح، ولكل منهم طريقته التي تختلف عن الطريقة التي يتبعها غيره، وهو إذا مارس الحركات والإيماءات والعبارات التي تؤدي إلى النجاح؛ انتهى بتحقيق هذا النجاح.

وأسوأ شيء هو السلوك كما لو كنا مؤمنين بالخيبة والفشل والحظ السيئ؛ لأننا عندئذ نتحرك حركات الخيبة، فنبطئ نشاطنا ونهمل لباسنا ولغتنا وقوامنا، ولا نبالي مخاصمة من نحتاج إليهم، ولا نقتصد ولا ندرس، ونقف من العالم موقف الخيبة ونتجه إليها وتصير الخيبة عادتنا، من حيث لا ندري؛ لأن النفس والجسم قد تعوداها بدلًا من أن يتعودا النجاح.

والآن اذكر أيها القارئ أنك وأنت تلميذ كنت ترى بعض زملائك وقد تعودوا النجاح، فهم في الصفوف الأولى يحتفظون بها على توالي السنين، مع أنهم لم يكونوا أذكى من غيرهم، ولكنهم اتجهوا وجهة النجاح المدرسي، وصار هذا الاتجاه عندهم عادة لا تُكلفهم كثيرًا؛ لأن العنصر الآلي في العادة يجعل تنفيذها سهلًا، وهذا الاتجاه يهيئ النفس

والجسم نحو النجاح بالسرعة في تحضير الدروس، وفي تجنب الفضول الذهني الذي يشطح ببعض الصبيان إلى الملاهي وغيرها، وكذلك هناك من تعودوا الخيبة، فهم في آخر الفصل ليس لقلة ذكائهم، بل لأنهم اتجهوا وجهة الخيبة فسلكوا كأنهم خائبون.

وإذا نحن أغضينا النظر عن العقبات الأصلية في المجتمع للنجاح، مثل: التعطل ونحوه، فإننا نستطيع أن نقول: إن كثيرًا من النجاح وكثيرًا من الخيبة يعزيان إلى الاتجاه إلى عادة الخيبة، وهذا الاتجاه، أو هذه العادة نستطيع أن نوجدها بأن نجعل الجسم يتحرك حركة النجاح أو حركة الخيبة، فتتألف لنا من ذلك الشخصية الناجحة.

(٥) ارسم خارطة حياتك

الشاب الذي يبني شخصيته ويتعهدها بألوان الرقي يجد أنه يرسم خارطة حياته بيده، وأنه لا يتسكع في الحياة، بل يعيش ببرنامج مرسوم قد امتد على خمسين أو ستين سنة.

وهناك بالطبع أحوال لا قدرة لنا على تغييرها، أو أن قدرتنا على هذا التغيير ضعيفة؛ مثل: العائلة والمدرسة والمجتمع، فإننا لا نختار عائلتنا أو مدرستنا أو مجتمعنا، وقد يكون بعضها أو جميعها سيئة نعيش ونحن نحمل لوثاتها أو أمراضها أو شرورها، وأساس شخصيتنا يُبنى من هذه المؤسسات الثلاث، ولا يكاد يكون لنا يد في بناء شيء منه، ومن الشاق جدًّا أن نهدم بعد ذلك هذا الأساس.

ولكننا حوالي العشرين نشرع في البناء فوق هذا الأساس، ومن هنا الاختلاف بين بعضنا البعض، فإن الشاب يكون قد نضج ذهنه، وقد اختبر إلى حد ما شئونًا مختلفة من المجتمع، وهو يفكر في اختيار حرفته، ونفسه تتجه إلى الحب والزواج وإيجاد عائلة جديدة في الدنيا، وهو يناقش الأخلاق في المجتمع الذي يعيش فيه ويأخذ ويرفض منها بقدر كفاءته الذهنية والثقافية، وهو يتطلع إلى المستقبل يحاول أن تكون له مكانة اجتماعية محترمة.

وهو في كل ذلك يرسم خارطة حياته بيده، وهو يضع – في عقله الباطن – برنامجًا يمتد سنوات، وقد يمتد إلى العمر كله، ولكنه قد يسير فيه على غير هدى، أو في توانٍ وتهاون، كأنه يتسكع، والأصل في هذا التواني أو هذا التسكع أنه لم يعين أهدافه، ولم يستقر على غاياته التي يُريد أن ينتهي إليها في طريق الحياة، فالبرنامج لم يتضمن معالمه وصوره.

وإذا شاء أحدنا أن يقضي في أوروبا ثلاثة أشهر للنزهة والتفرج؛ فإنه قبل الشروع في هذه السياحة يرسم لنفسه الخطة التي سيتبع من رؤية هذه العاصمة، إلى التجوال على ضفاف ذلك النهر، إلى زيادة هذه المتاحف، إلى حضور بعض الدرامات في ذلك المسرح؛ إلى غير ذلك، وهو ينتفع حين يضع هذا البرنامج؛ لأنه يُعين فيه حاجاته النفسية والذهنية ويزنها بكفاءته المالية، أما إذا قصد إلى أوروبا وشرع يسيح فيها جزافًا بغير برنامج؛ فإن نقوده لا تكفي جزءًا من عشرة مما كان يطمع في رؤيته واختياره.

وهكذا الشأن في الحياة، بل الحياة هنا أعظم وأخطر؛ لأننا لا نُبالي أن تضيع من حياتنا ثلاثة أشهر قضيناها جزافًا في أوربا، ولكن يجب أن نُبالي خمسين أو ستين سنة نعيشها على هذا الكوكب وكأننا ورقة جافة تحملها الريح، أو حطامة تنساق مع التيار في النهر، والشخصية الناجحة هي تلك التي يقف صاحبها من هذه الدنيا وهو يقول:

«إن لي حق تقرير مصيري، وإني سأبني شخصيتي وأضع برنامج حياتي وأرسم خارطتها».

وهو إذا فعل ذلك على وعي (وليس في عقله الباطن فقط) فإنه يجب أن يبحث عن شخصيته بعد عشرين، بل خمسين سنة كيف تكون؟

هل هو حين يبلغ الشيخوخة سيكون سمينًا أم نحيفًا، مثقفًا أم جاهلًا، ثريًّا أم فقيرًا، محترمًا أم حقيرًا، حبيبًا إلى زوجته وأولاده أم مخاصمًا لهم؟

وهو عندئذ يضع البرنامج وفق الأهداف التي يرمي إليها، وقد يُجزِّئ هذا البرنامج فهنا أربع سنوات لدراسة اللغة الفرنسية، وهنا عشر سنوات للطمأنينة المالية، وهنا ثلاث سنوات للألعاب الرياضية ... إلخ، وخير للشاب أن يضع مثل هذه البرامج ولا يبلغ من تحقيقها سوى النصف أو الربع من أن لا يكون له برنامج، وأن يتسكع في حياته ويسير جزافًا؛ ذلك لأن وضع البرنامج يكسبه عقلية الترتيب والاستعداد والتبصر.

وهذا البرنامج يجب أن يكون شخصيًّا، يرسمه كل شاب على قده الجسمي والنفسي، ولكن هناك أهدافًا عامة كلنا نصبو إلى تحقيقها، ومن الحسن أن نذكر ولو عناوينها؛ لكي نوحي إلى القارئ بعض الأبواب التي يجب أن تُطرق لإيجاد الشخصية الناجحة:

(١) فالشاب الذي سوف يعيش على هذا الكوكب نحو ٧٠ أو ٨٠ سنة يجب قبل أي اعتبار آخر أن يكون حاصلًا على صحة حسنة، والصحة الحسنة يجب أن نُعنَى بها قبل الوقوع في المرض وليس بعده، ومن هنا ضرورة الكشف الطبي مرة كل سنة أو سنتين؛ لكي نتعرف أمارات المرض البادئ حتى نعالجه قبل أن يتفاقم.

(٢) ما دمنا نعيش في مجتمع قائم على المباراة المالية ولا يعتمد على التعاون؛ فنحن مضطرون إلى أن نتوقى الفقر، وذلك بالادخار والتبصر للمستقبل، مع الالتفات للواجب البشري المقدس وهو العمل على إحالة هذا المجتمع الانفرادي إلى مجتمع تعاوني اشتراكي.

(٣) يجب أن نختار الحرفة التي نهوى، فإذا لم نفلح في هذا فيجب أن نختار هواية لفراغنا نمنحها الكثير من وقتنا ومالنا بسخاء.

(٤) يجب أن نختار الزوجة بحيث نجد أنها سوف تكون الأم التي تنجب لنا أجمل الأولاد وأذكاهم، وأصحهم وأعلاهم أخلاقًا.

(٥) يجب أن نفهم هذه الدنيا بالثقافة، نقرأ أحسن الكتب، ونشتري الجريدة أو المجلة التي ننتفع بها في إنارة أذهاننا وتكبير شخصيتنا.

(٦) يجب أن نشتري الاختبارات والمسئوليات إذا لم تصادفنا في حياتنا وأعمالنا؛ لأن الشخصية هي ثمرتها.

هذا كلام عام، ولكن العبرة التي قصدنا إليها من هذا الفصل ألا نعيش جزافًا وتسكعًا، بل يجب أن نقرر مصيرنا، ونرسم بيدنا خارطة حياتنا، ونضع البرنامج الذي يصل بنا إلى الغاية المنشودة.

(٦) اختر مهنتك

يتوقف النجاح في المهنة على شيئين: مقدار المهارة فيها، ومقدار الشخصية التي يمتاز بها محترفها.

فأما المهارة فتحتاج إلى الذكاء الذي يرث كل منا تراثه منه ولا نكاد نستطيع زيادته بما نكتسب من تعليم أو خبرة، ولكن ما يجب أن يُعرف عن الذكاء أنه عام وليس خاصًّا، بمعنى أن الذكي في الرياضيات هو أيضًا ذكي في الآداب، أو قادر على أن يكون كذلك، والذكي في الطب قادر على أن يكون ذكيًّا في التجارة والهندسة والكيمياء، فالذكاء لا يتخصص لمادة معينة، وإن كنا نحن نضطر إلى التخصص حين نحترف حرفة ما ومقدار ما عندنا من الذكاء لا يتغير، ونموه يقف عند السادسة عشرة من العمر، والفرق بين الشاب في العشرين من عمره (بل في السادسة عشرة) وبينه في الخمسين هو فرق في زيادة المعارف والاختبارات، وليس في زيادة الذكاء.

ولكن الشخصية ليست كذلك، فإنها مزاج واتجاه وتدريب، ولذلك يمكن ترقيتها، والمزاج يتكون بتربية العواطف في الطفولة، وليس لأحدنا سلطة أو تأثير فيما تسلمه من تربية عاطفية أيام طفولته، ولكنه – مع المشقة – يستطيع تغيير ذلك عندما يبلغ الرجولة.

والتفاوت في الذكاء ليس كبير القيمة في الشخصية الناجحة كالتفاوت في الشخصية؛ ذلك لأن أعمالنا العادية لا تحتاج إلى عبقرية فذة بمقدار احتياجها إلى شخصية لبقة، ونحن لا نطالب الناس بأن ينفقوا مئة في المئة من ذكائهم؛ لأن الحرف العامة لا تحتاج إلى ذلك، فالتاجر والصانع والمهندس والطبيب والموظف والقاضي قلما تعترضه مشكلة تطالبه بأن يرصد كل ذكائه لحلها، ويمكننا أن نتخيل بعض المواقف التي تطالبنا بأعظم مقدار من عبقرية الذهن، كموقف القائد يدرس المعركة بجميع عمومياتها؛ كي يصل إلى النصر، أو موقف السياسي يدرس الحال العالمية في السياسة؛ كي يضع دولته في مقامها اللائق منها، أو موقف الضال في الصحراء يحاول الاهتداء إلى طريق النجاة، أو موقف المخترع أو المكتشف؛ ففي كل هذه الحالات نحتاج إلى أن نستخدم كل ذكائنا والمتفوق هو العبقري.

ولكن ظروف حياتنا المألوفة، وصناعاتنا العادية في المدينة أو الريف، لا تطالبنا بكل هذا المجهود، وكثير من هذه الصناعات يمكن تأديته بنصف أو ثلاثة أرباع الذكاء عند من يمارسونها، ولكن من ينشد النجاح يجب ألا يُهمل الذكاء، بل يجب أن يمتحن ذكاءه قبل الإقدام على اختيار

حرفته، ويحسن الآباء إذا ساعدوا أبناءهم بامتحان ذكائهم وهم في المدارس الابتدائية؛ لأن هذا الامتحان يوضح مقدار ما سوف يكونون عليه من الذكاء وهم في الأربعين أو الخمسين من العمر، ويمكن للقارئ أن ينتفع بالأرقام التالية؛ كي يعرف ما تحتاج إليه الصناعات من الذكاء.

فإن الذكاء العادي يرمز إليه برقم ١٠٠، والبلادة يمكن أن تحسب بنحو ٧٥ درجة، والبلاهة حول الـ ٦٠ أو الـ ٥٠، والذكي الممتاز يحصل على ١٢٠ درجة، والعبقري هو من يتجاوز ١٥٠ درجة.

وقد وُجد أن أرقام الذكاء في الصناعات التالية:

- في ٣٠ مدرس ثانوي وجامعي كانت درجة الذكاء ١٥١ في المتوسط.
- في ١٥ طبيب وجراح كانت درجة الذكاء ١٤٦،٥ في المتوسط.
- في ٢٠ مهندس مدني كانت درجة الذكاء ١٤٢ في المتوسط.
- في ٩٠ مدرس ابتدائي كانت درجة الذكاء ١٣٧ في المتوسط.
- في ١٩ عامل تليفون كانت درجة الذكاء ١١٥ في المتوسط.
- في ١٢ بائع في حانوت كانت درجة الذكاء ٩٩ في المتوسط.
- في ٣٣ نجارًا كانت درجة الذكاء ٩٨ في المتوسط.
- في ١٢ حلاق كانت درجة الذكاء ٨٩ في المتوسط.

وهذه الأرقام تدل على «المتوسط»؛ أي: أنه كان بين المحترفين من هم دونها أو فوقها، والأب الذي يرعى مصلحة أولاده يجب أن يمتحن

ذكاءهم؛ كي يقدر نجاحهم في اختيار الحرفة في المستقبل، ويجب أن يعرف أنه لا يستطيع زيادة ذكاءهم مهما علمهم، وقد يحمله الطمع على أن يكون ابنه مهندسًا أو طبيبًا مثلًا وهو دون المئة في درجة الذكاء، وقد ينجح ابنه في الحصول على الشهادة بالمجهود العظيم، ولكنه لن ينجح في الحرفة وهو يعيش فيها خاملًا كارهًا.

وقد قلنا: إن مقدار الذكاء لا يتغير، ولا يزداد بالتعليم أو التدريب، ولكن الشخصية تتغير، فيجب أن يكون جل اعتمادنا عليها في تحقيق النجاح، والواقع أن النجاح يحتاج إلى الشخصية أكثر جدًّا مما يحتاج إلى الذكاء، ونحن في معاملاتنا قلما نلوم أحدًا على بلادته، ولكنا نلومه على ظله الثقيل أو كسله أو خجله، أو وقاحته أو الفوضى في عمله أو قلة رشاقته، أو إهماله في الأمانة أو النظافة أو الاستقامة؛ وكل هذه صفات خاصة بالشخصية.

واختيار الحرفة – فضلًا عن تعيين مقدار الذكاء – يحتاج إلى أن نعاين المجتمع، ونعرف ما فيه من صناعات يُرجى مستقبلها وأخرى لا يُرجى، والشاب حوالي العشرين أو قبل ذلك يحتاج إلى النصيحة ممن هم أسن منه؛ لأن اختباراتهم الاجتماعية أوسع من اختباراته.

ففي وقتنا هذا نجد صناعات راكدة لا تتقدم، وأخرى في سبيل الانقراض والزوال، وأخرى مقبلة يُرجى لها النجاح العظيم في المستقبل.

وفي مصر نجد أن الزراعة في ركود عظيم، وكذلك الصناعات اليدوية تكاد تدخل في طور الانقراض، إلا ما كان منها فنيًّا دقيًّا، بل إن الزراعة الدقية (على الطرق الدنمركية) لا يزال لها مستقبل في بلادنا، وصناعات اليد تتخلف وتنقرض أمام الآلات ولكن عصرنا يصرخ بأن المستقبل للصناعات الميكانيكية والكيماوية والكهربائية، فيجب أن يتجه الاختيار نحو هذه الصناعات الناجحة التي يُرجى مستقبلها.

وفي جميع ما كتبناه عن الشخصية قد فرضنا إمكان تغييرها وهي كذلك، ولكن مع صعوبات متفاوتة في التغيير، وهناك ما يمكن أن يُسمى «شخصية وراثية» حين نذكر المزاج الانطوائي والمزاج الانبساطي، فيجب على قارئ هذا الفصل أن يدرس هذا الموضوع.

(٧) الهواية والألعاب

في فصل سابق أوضحنا قيمة الإيحاء الذاتي، حين يسلك الشاب سلوكًا معينًا «كأنه ناجح» فتؤدي أعضاء جسمه وظائف النجاح، ويتجه هذه الوجهة، وفي فصل سابق أيضًا أوضحنا قيمة الهواية التي نتخذها ونملأ بها فراغنا بعمل نحبه ونتعلق به؛ لأن هذه الهواية تُصالح العقل الباطن على العقل الواعي، وتشبع شهوات خفية لو أنها بقيت بلا إشباع لقام صراع بين العقلين؛ فلا نُؤدي واجباتنا الحرفية والاجتماعية كما تطلب منا.

وفي هذا الفصل نحاول أن نمس الهواية والألعاب من زاوية أخرى تعد تكملة للفصلين السابقين، فإن العاطفة التي تنشأ في النفس لا تزول

بزوال السبب الذي أحدثها، مثال ذلك قد تحدث بالمترل في الصباح قبل أن نخرج إلى مكتبنا أو متجرنا حادثة معاكسة أو محزنة فتتكون عندنا عاطفة الغضب أو الحزن، ثم نترك المترل ونقطع الطريق وندخل المكتب أو المتجر ونشرع في تأدية واجباتنا، ولكن كل هذه المدة التي قطعناها، وجميع المناظر التي التقينا بها في الطريق، بل بعد ذلك قضاؤنا نحو ست ساعات في تأدية واجباتنا، كل هذا التغيير لم يؤد إلى زوال العاطفة التي تكونت بالمترل في الصباح، فنحن في غضب أو حزن طول هذه المدة، ولذلك لا نؤدي العمل على الوجه الذي يُطلب منا، فنحن نبطؤ في سرعتنا العادية، ونُقابل الرئيس أو الزميل أو الزبون في تجهم أو صمت يشبه التجهم، وخواطر الغضب أو الحزن تفتأ تغزو عقلنا بخيالات تخرجنا عن دائرة عملنا.

وهذا عكس ما يحدث لو أنه قبل أن نترك البيت، قد سمعنا خبرًا سارًّا أو صادفنا ظرفًا ملائمًا يبعث على الارتياح، فإن عاطفة السرور تلازمنا عندئذ طول النهار تقريبًا، فنُؤدي عملنا ونحن في ابتهاج ونشاط.

ومن شأن عواطف الغم وما إليه أنها تبطئ الحركة والنشاط، ومن شأن عواطف السرور وما إليه أنها تسرع الحركة والنشاط، ومن هنا ضرر الهموم؛ لأنها تجعل المهموم بطيئًا أو راكدًا، والشخصية الناجحة تحتاج لهذا السبب إلى عواطف تبعث النشاط والحركة، ومن هنا قيمة الهواية والألعاب.

ذلك أننا نهوى هواية ما ونُمارسها نُخرج منها وقد أشبعنا عاطفة سارة؛ لأننا أدينا عملًا نحبه، والسرور يلازمنا إلى ما بعد ذلك، وهو يبقى إلى ساعات العمل الحرفي فنؤديه في سرعة ونشاط وابتهاج.

ومن هنا فائدة الألعاب أيضًا، فإننا حين نلعب التنس أو أية لعبة رياضية أخرى لا ننتفع للقيمة الصحية في هذه اللعبة فقط، بل للقيمة السيكلوجية أيضًا، ذلك أننا ونحن نلعب نثير في أنفسنا عواطف الكفاح والرغبة في الغلبة والابتهاج، فتبقى هذه العواطف حية بعد اللعب نحو سبع أو ثماني ساعات، بحيث إذا تركنا الملعب لازمتنا في المكتب أو المتجر فنُؤدي واجباتنا بروح الكفاح والرغبة في الغلبة والابتهاج، وتكون هذه العواطف عونًا لنا على النجاح.

بل إن لعبة الحظ تُؤدي – إلى حد ما – هذه المهمة؛ لأنها تبعث مثل هذه العواطف، وهذا بصرف النظر عن الأضرار الأخرى التي تنشأ منها.

وعلى هذا يمكن أن نقول: إن للهوايات والألعاب فائدتين:

الأولى: سلبية؛ وهي أنها تكفنا عن رذائل ربما كنا نقع فيها لكي نملأ بها فراغنا ونسري بها عن همومنا؛ مثل: الخمر، أو ما هو أسوأ منها.

والثانية: إيجابية؛ وهي أنها تُحدث لنا عواطف سارة تبعث فينا النشاط والابتهاج، وتخفف من أعباء الهموم، بل تشجعنا على مجابهتها وحلها.

ومن الاختبارات المألوفة أن الشاب المنغمس في العادة السرية مثلًا يقلع عنها أو يخفف منها حين يصرف بعض وقته كل يوم إلى الألعاب

الرياضية، وذلك لأن السرور الذي أحسه مدة اللعب قد لازمه بعد ذلك ساعات وقت انفراده بغرفته، فلم يحتج إلى العادة السرية التي كان يلجأ إليها للتفريج ولإيجاد لذة عابرة يخفف بها من سأمه أو غمه أو همومه للمعاكسات أو الهزائم التي يلقاها، وقل مثل هذا في عادات أخرى يمكن استصلاحها بالألعاب والهوايات.

وثمة شيء آخر له قرابة بهذا الموضوع، فإن القارئ الذي عرف الآن أنه يجب أن يدير عواطفه حتى تخدمه يجب أن يذكر أنه حين يتكاسل في الفراش عند الاستيقاظ، ويقضي نحو ربع أو نصف ساعة وهو يتثاءب ويتمطى ويتقلب فاترًا حائرًا، سيترك البيت إلى مكتبه أو متجره وهو في هذا التكاسل أو التراخي؛ لأن إيحاء الكسل يبقى مدة طويلة، وهذا عكس ما يحدث لو أنه نهض مشمرًا يقظًا يلعب لعبة منشطة ثم يستحم، فإن روح النشاط يلازمه عندئذ طول النهار.

وكذلك على القارئ أن يذكر أن الأغاني التي يسمعها من مغنينا أو مغنياتنا إنما هي تنهدات منغمة وتأوهات ملحنة، وهي تحدث عواطف الاسترخاء والاستسلام، فيجب أن يتجنبها إذا أراد النشاط والهمة والتوفز.

(٨) جيته: الشخصية الكاملة

نظن أنه من حق القارئ أن يطالبنا بمثال للشخصية الكاملة، وفي التاريخ الماضي والتاريخ الحاضر شخصيات متعددة الألوان يمكن أن نختار

منها، وليس من المفيد للقارئ أن نصف له شخصية الشباب في نابليون أو الإسكندر، ولا شخصية القداسة في غاندي، ولا أمثال هؤلاء من الزعماء والقادة؛ لأنه إنما يحتاج إلى مثال عملي يمكنه أن يقتدي به أو على الأقل يسترشد بحياته، وهو لا ينشد الزعامة السياسية أو القيادة الحربية.

وقد اخترنا «جيته» باعتباره الشخصية الكاملة، ولا نقصد أنه يمكن كل إنسان أن يقتدي به ويحتذي سلوكه، ولكن نرى أنه يمكن الاسترشاد بأشياء كثيرة في حياته ليست فوق مستطاع القارئ العادي.

ولد جيته سنة **١٧٥٩** ومات سنة **١٨٣٢**، وكان أديبًا شاعرًا، كما كان سياسيًّا وإداريًّا، ملأ مناصب عالية في الدولة – دوقية ساكسي فايمار في ألمانيا – وألف القصص ومئات من المقطوعات والقصائد الرائعة، وكان مع ذلك عالمًا له مكتشفات في الجيولوجية والبيولوجية والبصريات، وبدهي أن هذه الحياة الحافلة بالاختبارات والمسئوليات جديرة بأن تُكوِّن الشخصية المثلى التي شرحناها في الفصول السابقة، فإن جيته كان أعظم رجل مثقف في عصره، وتحمل بثقافته همومًا بشرية جعلته رجل الدنيا، يهتم بما في وسط إفريقيا كما يهتم بما في ألمانيا نفسها، ويدرس البوذية الصينية كما يدرس أشعار بيرون، ثم هو كان يمارس الوزارة ويتحمل جميع مسئولياتها السياسية والاجتماعية، ويتصل عن طريقها بالمشكلات الأوروبية، وهو يُعرف الآن بمخلفاته الأدبية من قصص أو أشعار وحكم، ولكن آفاقه الذهنية كانت تتجاوز ذلك، فإن

بيته كان متحفًا لعظام الحيوانات المنقرضة والأحجار التي سبقت التاريخ البشري، وكان كثيرًا ما يُنحي عن نفسه المشاغل السياسية أو يرجئ الفصل فيها؛ كي يدرس الأصل في زهور الشجر هل هي أوراق تطورت أم شيء آخر، وقد سُمِّي حجر باسمه برهانًا على فضله في الجيولوجية، ثم كان مع ذلك يسيح، ويختلط بالمجتمع، ويحب، بل لقد أحب وتألم من الحب بعد السبعين من عمره، وقد أسس عائلة ورأى أحفاده.

ونحن نعزو الكمال إلى شخصيته لكثرة هذه الاختبارات، فإنه مارس حياة العمل وحياة الذهن، ولم يتخصص، فهو ليس سياسيًّا فقط، وليس عالمًا أو أديبًّا فقط، بل كان كل هؤلاء، فامتدت شخصيته إلى آفاق بعيدة ومختلفة، وكثرت مسئولياته الوطنية والعالمية وتنوعت، ولم يكن مع ذلك ناسكًا من حيث الشهوات، فإنه كان يعب من الحياة عبًّا.

والعبرة لنا من حياة جيته هو أن نكثر آفاقنا ونتنوع كي نكبر شخصيتنا.

درس جيته القانون في الجامعة، ولكنه لم يجد فيه ما يشبع طموحه النفسي أو الذهني فكان يدرس وهو بالجامعة علومًا أخرى، وحدث عقب تخرجه أن زار فيمار، وهناك عرف دوق هذه المدينة الذي أحبه وطلب منه أن يبقى معه، وانتهى هذا الحب – الذي كان متبادلًا – إلى أن صار جيته وزير الدوقية يشرف على جميع إدارها، ويسوي علاقاها مع الدول الأوربية، وبين سنتي ١٧٨٦ و١٧٨٨ زار إيطاليا فكانت هذه الزيارة اختبارًا فنيًّا، كما كانت اختبارًا مناخيًّا، وتعرف إلى شيلر الشاعر

وصادقه وانتفع بصداقته، واختيار الأصدقاء ركن مهم في تكوين الشخصية، فقد اعترف جيته بأن شيلر كان حافزًا فنيًّا لنشاطه.

وفي سنة ١٧٨٨ صادق كرستيانا فوليبوس، وتزوجها سنة ١٨٠٦، وشرع سنة ١٨٠٨ يُؤلف درامة فاوست التي تقرن الآن إلى اسمه، وأتمها بعد نحو ٢٧ سنة، وكان مكبًّا على دراسة العلوم فبحث البصريات والجيولوجية والنبات، وعرف نظرية التطور وآمن بها ودعا إليها قبل داروين، والمتأمل لحياته يرى أن العلم كان همه الأكبر، وأن الأدب همه الأصغر.

والمتأمل لحياة جيته يجد أن أعظم ما صنعه ليس مؤلفاته في الأدب أو مكتشفاته في العلوم أو خدمته للدوقية، وإنما هو شخصيته فقد صنع نفسه، وهنا يجب أن نقف لعبرة أخرى، وهي أن الأديب الذي يؤلف كتابًا يجب أن يُعنَى بتأليف شخصيته، وأن أسلوب الحياة الذي نراه في المؤلف يجب أن يكون أكبر دلالة لنا من أسلوب الكتابة الذي يتبعه، ولو استقر عندنا هذا المقياس لطالبنا المؤلفين في مصر بواجبات خطيرة هم غير أَكْفَاء لها.

وقد أحس جيته نفسه دلالة حياته، فكان يقول: إن جميع ما تعلم وجميع ما اختبر إنما كان مواد بنى بها هرم حياته وشخصيته، وقد قال ذات مرة: «إن أي إنسان عرف وفهم حقًّا مؤلفاتي وشخصيتي؛ يضطر إلى أن يعترف بأني قد حققت لنفسي حرية الروح.».

وكانت اهتماماته عالمية؛ لأن الثقافة رفعته إلى مستوى عالٍ يتجاوز الحدود الوطنية، بل هو كان كذلك حتى في ديانته؛ إذ لم يكن مسيحيًّا فقط، بل كان يقول: إن ديانته مزيج من جميع الأديان أو هي البشرية كما نفهم الآن من مدلول هذه اللفظة، ولما كان حوالي الثمانين من العمر كانت أوروبا تتحدث عن ثلاثة شرايين كبرى للملاحة هي قناة السويس وقناة بناما وقناة الدانوب والراين، وكان جيته يذكرها بقوله: «إني أود لو أعيش خمسين سنة أخرى حتى أرى إتمام هذه المشاريع الثلاثة الكبرى.».

ومن هنا يمكن القارئ أن ينير بصيرته عن المعنى الأنيق للشخصية السامية، فإن الإنسان حين يُربِّي نفسه مدى ثمانين سنة وهو يحس أن هذه الدنيا وطنه الأكبر؛ يجد أن دراسة شئونها العامة هي دراسته الخاصة.

وأنه ليس قروي الذهن، كما هو الشأن في بعض الأدباء في مصر، والرجل الذي يشتهي إتمام مشاريع عالمية، ويود أن يعيش نصف قرن فوق الثمانين كي يراها محققة جدير بأن يقول عن نفسه أنه بنى «هرم» شخصيته؛ لأنها هي في الحق هرم.

وكان جيته يدون «يومية» يكتب فيها كل يوم ما مر بحياته مما يمكن أن يرقيه ويربيه، واليومية هي حساب يومي نُحاسب به أنفسنا هل قتلنا الوقت أم انتفعنا به؟

وكانت شهوته للقراءة والاختبار والحياة نشيطة قوية، فكان يخشى قصر النهار في الشتاء ويستعد له باستغلال النهار كله في الصيف بالقراءة، وكان يصل دراسته في الشيخوخة بدارسته في الشباب فكان يقول: «إني أمتاز بالحظ الحسن في شيخوختي؛ لأني أجد في نفسي أفكارًا لو شئت أن أواليها حتى تتكشف ... لاحتجت إلى أن أعيش حياتي مرة أخرى.»!

ومن أقواله التي تدل على اتجاهاته النفسية: «وهل أنا بلغت الثمانين، وهل يجب عليَّ ألا أتغير، بل أعمل كل يوم مثل اليوم السابق؟ كلا إني أختلف عن سائر الناس وأبذل مجهودًا أكثر منهم كي أفكر كل يوم في شيء جديد حتى أتجنب السأم، أجل يجب أن نتغير على الدوام، وأن نجدد شبابنا على الدوام وإلا أصابنا التعفن.».

وكان متفائلًا حتى لقد بلغ تفاؤله أنه أسف على أنه ألف قصة «آلام فرتر» وهي لا تبعث على التفاؤل والأمل، بل تبعث على اليأس.

كان نابليون يُحارب الألمان ويذل ملوكهم وأمراءهم ومع ذلك كان جيته يحبه؛ لأنه رأى فيه رجلًا عظيمًا يُفكر في الولايات المتحدة للقارة الأوروبية، ويسن «القانون» وينشر مبادئ الثورة الفرنسية، ونظم جيته قصيدة في نابليون قال عنه في آخرها: «إن الذي يقدر على كل شيء يقدر أيضًا على السلام.»، وهذه الجملة الأخيرة تبين أن إعجابه به لم يكن لعبقريته الحربية.

وكان نابليون قد قرأ «فرتر» إحدى قصص جيته سبع مرات قبل أن يلاقيه، وكان يتتبعه في مؤلفاته وأفكاره، ولما كان في ألمانيا دعاه، فلما ذهب إليه جيته كان نابليون يتناول فطوره، فلما رآه رفع رأسه وقال: «أنت رجل.».

وكانت لذة التغيير والتطور كبيرة عند جيته حتى قال: «التطور أجمل من الكمال.» لأن الكمال راكد أما التطور فمتحرك، والشخصية النامية لا ترضى بالركود ولو كان هذا الركود كمالًا.

وفي صباح اليوم الذي مات فيه طلب كتابًا عن الثورة الفرنسية؛ لأن مزاجه النفسي كان مزاج الإعجاب بالثورات التي تُغير الدنيا، وتنقلها من القيود الروحية والسياسية والاجتماعية إلى الحرية.

وماذا نستفيد إذن من شخصية جيته؟

ليس كل إنسان قادرًا على أن يكون مثل جيته، ولكن يمكن كل إنسان أن يسترشد بحياته، فإنه رقى نفسه بدراسة العلوم والآداب، وكوَّن شخصيته بتحمل المسئوليات السياسية، ورفعته ثقافته إلى أن يكون رجلًا عالميًّا يتحدث عن قناة السويس، وفوائدها للملاحة، واتصال الأمم بعضها ببعض، كما لو كانت هذه القناة في وطنه، ويتحدث عن البوذية والهندوكية كما يتحدث عن المسيحية، ولم أقرأ في حياته أنه كان ينام في النهار؛ لأن شهوته لأن يعيش ويستغل النهار كله كانت تحمله على تجنب النوم إلا في الليل، وقد علَّمنا جيته على أن نؤلف شخصيتنا، وأن يكون

لنا أسلوب في العيش يُرقينا، وعلمنا كذلك كيف نكبر من شأن التمرن للحياة بالتصدي للاختبارات.

(٩) تلخيص

في الفصول الثمانية السابقة عالجنا النجاح من حيث إنه الناحية الخاصة التي يلتفت إليها كثير من الشبان حين يذكرون الشخصية، وذكرنا الشخصية الإنسيابية؛ أي: التي طهرت من العوائق أو العراقيل النفسية، ثم أوضحنا وسائل النجاح كما تفهم في أمريكا وطن النجاح، وبينا أن النجاح يجب أن يكون عامًّا وليس خاصًّا في الحرفة؛ أي: يجب أن ينجح الشاب في الحرفة والعائلة والمجتمع وفي ثقافته وصحته ... إلخ، وهذا هو النجاح الجامع، وبينا قيمة الإيحاء، فإن الناجح يجب أن يسلك كما لو كان ناجحًا، وقد توسعنا أيضًا في شرح الفوائد التي تعود من الهواية، كما أننا أوضحنا قيمة الاستقلال النفسي في تكبير الشخصية، وكيف يجب على كل منا أن يختار حرفته، وأن يرسم خارطة حياته بيده، مع بيان موجز لما تحتاج إليه بعض الحرف من الكفاءات.

والفصل الأخير هو مثال للشخصية الكاملة في جيته.

الفصل السادس

تغير الشخصية

(١) التغير السليم للشخصية.

(٢) التغير المريض للشخصية.

(٣) الشخصية بعد الخمسين.

(٤) الشخصية الانطوائية والشخصية الانبساطية.

(٥) الشخصية القلقة وكيف تغير.

(٦) تلخيص.

(١) التغير السليم للشخصية

للشخصية أسلوب معين يشبه الأسلوب الذي نتخذ في المشي أو الخط يصعب على غيرنا أن يقلده، كما يصعب علينا نحن أن نُغيره، ولكن التغيير مع ذلك ممكن، فإن الكاتب الذي بلغ الخمسين وهو يمارس الكتابة كل يوم يجد فرقًا بين خطه الراهن وبين خطه قبل ثلاثين سنة، وهو يجد هذا الفرق أوضح لو كان موظفًا بالحكومة عليه رئيس ينقد خطه ويطالبه بتحسينه.

وتغير الشخصية يأتي عفوًا وطبيعة كما يأتي إرادة وعمدًا، فنحن حين ننتقل من الصبا إلى الشباب نتغير، بل إن هذا التغير – مدة المراهقة مثلًا – يزيد في وضوحه إلى درجة تجعل الشاب أو الفتاة في حيرة وارتباك وخجل لم يكن أحدهما يحسها قبل المراهقة، ثم تستقر أصول الشاب، وتبني شخصية جديدة بعيدة عن أساليب الصبا، والمرأة عقب الخمسين وكذلك الرجل ... كلاهما تتغير شخصيته، فتقل الرغبة في التأنق وتزول علامات النزق أو الخفة، ويرغب كلاهما في الوقار بدلًا من الجمال، وفي السكينة بدلًا من الحركة، ويتجه الذهن وجهات جديدة لم تكن واضحة أيام الشباب، وإن كان بعض جذورهما يرجع إلى عادات الشباب.

وفي هذه الحالات نجد أن التغير طبيعي يتسق وفسيولوجية الجسم، وما دامت النفس سليمة فإنه يحدث في يسر أو بأقل الصعوبات، ونرى الشخصية عندئذ تسير في نموها كالثمرة تسير نحو النضج والإيناع، ولكن النفس أحيانًا قد لا تكون سليمة فيشق عليها هذا التغيير، كالكهلة

تلتزم أساليب الشباب في اللباس والحركة والإيماءة واللغة حتى لتكذب على نفسها بشهوات زائفة، ولا تجد عندئذ غير الاحتقار والسخرية، وكذلك الحال في الرجل يبلغ الستين ويسلك كأنه في العشرين يضحك ويزأط ويغازل، وفي هذه الحالات يحتاج الرجل أو المرأة إلى تصحيح شخصيته، على أننا مع ذلك يجب أن نمتدح بعض النشاط والهمة يبدوان من الكهل كأنه في الشباب؛ حتى لا يستسلم للركود والشيخوخة والخمول.

ولكن هناك نوعًا آخر من تغير الشخصية، نعني به التغير الإرادي الذي نطلبه نحن؛ لأننا نرغب في لون معين من الرقي، وهذا التغير نراه في مجتمعنا أو أي مجتمع آخر، فقد يكون أحدنا متدينًا بدين ما أو يُؤمن بمذهب معين ثم يرغب في تركه لاعتناق دين آخر، فهنا تتغير الشخصية بتغير النفس والعقيدة والعادات والأخلاق والوسط، وأحيانًا نجد رجلًا في الخمسين أو الستين كان مدمنًا للخمر ثم كف فجأة عنها والتزام الصحو، أو نجد شابًّا كان يستهلك عشرات السجاير كل يوم ثم انقطع عنها فجأة، وفي تاريخ المماليك في مصر كنا نجد المملوك ينشأ على الفسق ثم ينتهي آخر حياته ببناء المساجد وإقامة المبرات، بل كذلك يُثبت تاريخ القسطنطينية أن قياصرتها بعد حياة حافلة بالجرائم في القصور كانوا ينتهون إلى الرهبنة والتزام التقوى والصلاح.

ففي جميع الحالات قد رأينا الشخصية تتغير، ونحن حين نجد شابًّا يكف عن التدخين أو الشراب نتوهم أنه قوي الإرادة، وخاصة لأن هذا

الكف هو – على الدوام – تام وفجائي، ولكن ما نزعمه عن هذه القوة في الإرادة يحتاج إلى تفسير، ذلك أن المدخن مثلًا حين يجد إسرافه في التدخين، يمارس التدخين ولكن على مضض، فهو كاره ساخط على عجزه عن إبطاله.

وهو يتخيل حياته بلا تدخين حين تجود صحته وتتوافر نقوده، وهذا الخيال يتجسم له في كل وقت، بل هو قد يحلم به في النوم لرغبته في تحقيقه، وعندئذ تتكون الإرادة في قطع العادة، وهذه الإرادة ليست متعمدة كما نفهم من معنى التعمد؛ أي: أن الراغب في الكف عن التدخين لا يقول لنفسه: «أنا قوي الإرادة وسأمتنع عن التدخين هذه الساعة» ثم ينفذ؛ لأنه في هذا الحال لا يدوم التنفيذ سوى ساعات أو على الأكثر أيامًا ثم يعود لعادته.

وإنما الذي يحدث أنه يسخط أولًا على أنه أسير العادة، ويأسف على الخسائر التي تعود عليه منها، هذا أولًا، ثم ينشأ في ذهنه خيال عن حاله وهو منقطع عن هذه العادة، هذا ثانيًا.

ومتى نشأ الخيال تكونت عنده الرغبة في تحقيق هذا الخيال المحبوب، ثم تستحيل الرغبة العامة الضعيفة إلى إرادة خاصة قوية، ويتم كل هذا التطور وهو لا يكاد يشعر به، ثم يكون الانقطاع، وتتغير الشخصية.

وهذا هو ما يحدث في الرجل يترك دينه أو مذهبه، أو يكف عن الخمر، أو يقلع عن حياة الفسوق إلى حياة الصلاح، ففي كل هذه

الحالات يجب أن يسخط أولًا على حالته الراهنة، ثم يتخيل حالًا أخرى أفضل، ثم تنشأ في نفسه الرغبة في تحقيق هذا الخيال، ثم يكون الإقلاع عن الحياة السابقة وابتداء حياة جديدة، وتتغير الشخصية عندئذ.

وكثير منا في حاجة إلى أن تتغير شخصيته، فيجب أن يسير نحو هذا التغير في الأطوار التي ذكرنا؛ وهي:

(١) يجب أن يجسم ويمثل لنفسه الأضرار التي تعود عليه من حاله الراهنة، وذلك بتعداد هذه الأضرار بالقول والكتابة والتفكير مع التبسط في شرحها؛ حتى يقتنع تمام الاقتناع بضررها.

(٢) إذا فعل ذلك نشأت في عقله الباطن – من حيث لا يدري – كراهة الحال حتى يسخط عليها.

(٣) بعد ذلك يجد – من حيث لا يدري – أنه يتخيل حالًا أفضل وأحسن.

(٤) وأخيرًا تنشأ في نفسه رغبة – تتحول إلى إرادة – لتغيير هذه الحال، ثم يتغير.

(٢) التغير المريض للشخصية

نحن نعالج في هذا الكتاب الشخصية العادية؛ أي: شخصية رجل المكتب والمتجر والمصنع، أو الأفندي العادي والبك والباشا وسيدة البيت

والزوجة والأم والآنسة، ونفرض في هؤلاء جميعًا أنهم يعيشون في الوسط المألوف، ولذلك حين نبحث تغير الشخصية لن ندخل في التفاصيل الخاصة بالحالات التي تُؤدي إلى المارستان، فلن نتحدث مثلًا عن الشيزوفرنيا، وهي المرض الوبيل للشخصية، ولن نتحدث عن أمراض أخرى دونها؛ لأننا نفرض أن المنتفع بهذا الكتاب رجل سليم، أو هو ليس به من الزيغ إلا أقله الذي تمكن معالجته بمجهود صغير.

وفي الفصل السابق تكلمنا عن التغير السليم للشخصية، وفي هذا الفصل سنتكلم عن التغير المريض للشخصية، ولكن المرض هنا مألوف يمكن معالجته؛ أي: أنه ليس خطيرًا يبعث على اليأس أو ما يقرب من اليأس،كما هي الحال في الشيزوفرنيا.

ولنبدأ بحال الشاب في المراهقة، فإننا نجد فيه تغيرًا طبيعيًّا في الجسم والنفس، ولكن قد يقع هذا الشاب في العادة السرية، ثم يسرف في ممارستها، وعندئذ تتغير شخصيته تغيرًا مريضًا؛ لأنه يحب الوحدة ويستسلم طول نهاره وبعض ليله لخواطر جنسية تناسلية، ويبتعد عن الواقع، ويهمل واجباته، وقد ينتهي بالخيبة في المدرسة لهذا السبب، فهنا تغيرت الشخصية تغيرًا مريضًا، والشاب يحتاج في هذه الحال إلى أن نرده إلى الواقع، ونحبب هذا الواقع إليه ونخفف من صعوباته، ولن يكون هذا بالقسر، ولكن بإيجاد المغريات من ألعاب رياضية إلى ملاه سينمائية أو مسرحية، إلى تشجيع هواية ما قد يتعلق بها مثل ممارسة أحد الفنون.

وهكذا أيضًا الأم عقب زواج ابنها فإنها إذا كانت تعيش معها، تنقلب حماة تكره رؤية ابنها مع زوجته، فهي تدق الباب عليهما في الصباح وتنهر الزوجة وتعزو إليهما الإهمال وتشكو وتتأفف، والحقيقة أن هذه الأم كانت إلى يوم زواج ابنها تعده كأنه زوجها، وقد جاءت هذه الزوجة الجديدة ضرة لها، فهي تغار وتغتاظ، وهي أيضًا – مثل الشاب المراهق – في حاجة إلى مغريات أخرى تسري بها عن نفسها هذه الغيرة، فيجب أن نشجعها على الزيارات حتى تترك البيت بعض الوقت كل يوم، ويجب أن يُفتح البيت لزيارات الضيوف حتى تُشغل بهم عن غيرتها، ويخشى أنها إذا تركت في الأسابيع الأولى من ممارسة غيرتها أن يستقر لها أسلوب في المعاملة يصير نكد العائلة ونغاصتها، فلا بد من معالجتها منذ البداية مع تبصرة الابن والزوجة بالحال التي وقعت فيها هذه الأم الحماة، والحال المثلى هنا هي بالطبع انفصال الزوجة من الحماة.

وهناك تغير مريض آخر، هو بلوغ المرأة سن اليأس حوالي الثامنة والأربعين من عمرها، فإنها تنتقل من الشباب إلى الشيخوخة، وهي تجاهد لكي تستبقي شبابها وتجاهد في أسف وحزن، وهذا وحده يحدث تغيرًا نفسيًّا سيئًا، ولكن هناك ما هو أخطر من ذلك، وهو أن هذا الانتقال يرافقه تغير فسيولوجي في الجسم هو سبب لتغير سيكلوجي آخر، والنساء يختلفن في درجة هذا التغير، فهناك من لا تكاد تحسه، وهناك من تجن منه، وبين الحالين درجات متفاوتة، وهنا تتغير الشخصية، وتحتاج المرأة إلى عناية كبيرة لكي تجتاز هذا التطور في سلامة وصحة.

وكذلك الرجل له سن يأس أيضًا، ولكنها ليست واضحة الحدود كما هي الحال في المرأة، وهو أيضًا عرضة لتقلبات نفسية في هذا التغير، وقد يقع في زيغ جنسي، أو هو قد تنعكس حالته النفسية في عمله فيفشل أو يُهمل فيه؛ لأنه يحس أن رجولته قد وهنت، وأنه لذلك لم يعد كفئًا لأن يتولى عملًا مثمرًا ناجحًا، وهذا أيضًا في حاجة إلى علاج.

وفي هذه الحالات الثلاث نجد تغيرًا سيكلوجيًّا قد نشأ في الشاب المراهق، أو في الرجل أو المرأة في سن اليأس، هو نتيجة التغير الفسيولوجي في الجسم، وهو تغير يتم في سلامة وصحة في كثير من الناس ولكنه يعد مرضًا، بل أحيانًا مرضًا خطيرًا عند غيرهم، فيجب أن نتبين هذه الحالات ونُعالجها، وقيمة المعالجة هنا تتوقف على المبادرة؛ لأن السلوك الشاذ يستقر بالمدة الطويلة، ويعود من الشاق جدًّا أن نرد المريض إلى حاله السابقة السوية المتزنة.

وهناك أنواع أخرى من التغير، فإن الشاب الطيب قد تمرض شخصيته وينتهي إلى الإجرام، أو قد يتمذهب بمذهب جديد ليس عليه غبار، ولكن الدوافع الباطنة التي دفعته إلى هذا التغير كانت زائغة، أو هو قد ينتهي إلى الانتحار، وأعظم ما يبعث على هذه الحالات أن الواقع غير محبوب أو غير مطاق، فيجب أن نلتفت إلى الوسط الذي يعيش فيه هذا الذي تغيرت شخصيته تغيرًا مريضًا، ونعالج الشخص من هذه الناحية.

(٣) الشخصية بعد الخمسين

في أغلب الأحيان يعود جمال الشباب إلى الاتزان الجسمي، ولكن جمال الشيخوخة يعود إلى الاتزان النفسي، أو بكلمة أخرى نقول: إن جمال الشاب أو الفتاة هو جمال الجسم، في حين أن جمال الشيخ أو السيدة المسنة هو جمال النفس، وليس شك في أن الغدد الصماء تؤثر في نمو الجسم نحو الشيخوخة، ولكن الأسلوب النفسي الذي نتبعه في حياتنا مدة الشباب والكهولة، بل قبل ذلك مدة الصبا والطفولة يؤثر في الشيخوخة، فنحن نتعود منذ الصغر والشباب عادات جسمية في الابتسام والتقطيب، ونتخذ إيماءة الوقار أو حركة التهكم، فيثبت كل ذلك في شيخوختنا، وهناك عادات نفسية كذلك ترسخ في الشيخوخة، مثل: التفاؤل أو التشاؤم، والفكاهة أو الاغتمام، والتصرف بالهموم أو الانقياد لها.

والشخصية الحسنة بعد الخمسين هي تلك التي اتفقت فيها الإرادة مع الذكاء، واتسق لها أسلوب نفسي لا تتعارض فيه الشهوات مع الفعل، فالطموح ليس بعيدًا يتجاوز القدرة الذهنية والانفعالات البدائية قد اندغم بعضها في بعض فصارت ميولًا لا تتغير بسرعة، وعندئذ لا نساق بعواطفنا المجردة من غضب أو سرور، بل نثبت على ميول بطيئة التأثير نستطيع في بطئها هذا أن نستشير العقل ونصل إلى التسوية أو الاتزان، وإذا كنا قد ربينا أنفسنا مدة الشباب، وإذا لم يكن حظنا سيئًا جدًّا في أيام الطفولة والصبا فإننا في شيخوختنا نجد أن الذكاء والإرادة والأخلاق – أي: العقل والعواطف – كلها متسقة.

وقبل نحو سنتين كتبت مقالًا في مجلة الشئون الاجتماعية عن الموظف في المعاش شرحت فيه ما يجب أن يعده أيام شبابه؛ لكي يهنأ بشيخوخته، والحق أن سني الشيخوخة في مصر ليست هنيئة، وذلك لعيوب كثيرة، وهذا الفصل عن الشخصية بعد الخمسين قد قصدت منه إلى إعدادي القارئ لهذه السنين حتى لا يجد شيخوخته خواء يجعله يسأم الحياة ويركد، ويكون بمثابة من مات ولما يدفن، وكثير من شيوخنا في هذه الحال السيئة.

وفي مصر يصل الشاب إلى الشيخوخة وهو متضخم ثقيل الجسم كثير الشحم، وبعض هذا التضخم يعود إلى المطبخ الذي لا يزال شرقيًّا يعتمد على الطعام الدسم، ولو أننا أصلحنا مطبخنا وامتنعنا عن اختزان السمن، لأصبحت مائدتنا أكثر ملاءمة للصحة وأحفظ للنحافة الصحية، ولكن بعض هذا التضخم يعود أيضًا إلى علل نفسية، ذلك أن الشاب لا يجد في حياته من المشاغل اللذيذة ما يملأ فراغه ويعبئ عواطفه وذهنه، فهو يسأم ويفر من السأم إلى لذة المائدة فيسمن.

والسمن في ظاهره دمامة بغيضة، وهو في باطنه أفدح؛ لأنه يهيئ الجسم لأمراض كثيرة في الشيخوخة، وإذا كانت الصحة أول شروط الحياة الهنيئة، فإن على الشاب الذي ينشد الشخصية الحسنة أو العالية مدة الشيخوخة أن يُعنَى بصحته ويتوقى التضخم، بل عليه أن يعرف السبب لسمنه؛ هل هو الطعام الدسم الوافر أو سأم النفس والرغبة

المستمرة في لذة المائدة؟ وكلنا يعرف الفرق بين شخصية الشيخ المترهل الخامل، وبين ذلك الآخر النحيف اليقظ.

ومن السهل ألا نُبالي إغراء المائدة إذا كنا مدة الشباب نحتفظ باهتمامات نفسية وذهنية حسنة؛ لأننا بذلك نتجنب السأم، ونجد في هذه الاهتمامات ما يشغلنا عن لذة المائدة أو الخمر أو التدخين، وخير ما يشغلنا ويبقى لنا كبعض اهتماماتنا مدة الشيخوخة هو أن نجعل الثقافة عادة مدة الشباب، ذلك أننا إذا تعودنا القراءة والدرس عاشت معنا هذه العادة إلى الشيخوخة، ونمت بنمونا، وتفتحت أمامنا بها آفاق جديدة عامًا بعد آخر، وقيمة هذه العادة سلبية وإيجابية معًا؛ لأنها أولًا تكفنا عن عادات سيئة، وثانيًا تجعلنا نشتغل باهتمامات مختلفة، فقد كان جيته في الثمانين من عمره يشتهي أن يعيش خمسين سنة أخرى لكي يرى قناة السويس محفورة مسلوكة للسفن، وهذا الاهتمام بشئون العالم قد نشأ ونما عنده بالثقافة المتصلة، فاستطاع أن يحتفظ بشباب ذهنه إلى أن دخل في العقد التاسع من العمر، وكل منا قادر على ذلك إلى حد ما إذا هو استطاع أن يجعل القراءة والدرس عادته منذ الشباب، وأن يتخذ من درسه كفاحًا لخدمة البشر بمقاومة الاستعمار والاستبداد وتعميم الحرية والمساواة.

ولكن إذا لم تكن القراءة والدرس هوايتنا التي نصل بها إلى الشيخوخة، ونشتغل عن سبيلها بالسياسة والاجتماع والعلوم، فلا بد من هواية أخرى نتخذها مدة الشباب ولو كانت صناعة يدوية؛ لأننا على

كل حال يجب أن نتجنب الركود وقضاء الوقت على القهوة في لعبة من لعب الحظ أو التطلع إلى السابلة أو القيل والقال؛ لأن هذا السلوك يشعرنا بخواء حياتنا، ويعجل وفاتنا النفسية والجسمية.

وعندي أن الثقافة هي خير الهوايات للشيخوخة، وهي وحدها التي نستطيع بها أن نصل إلى أعماق الدين، بل إني لا أكاد أعرف كيف أن يتدين الإنسان قبل الخمسين، وقبل أن تكون ثقافته قد انتقلت من طور التحليل والنقد إلى طور التأليف والبناء، ومتى صار لنا دين أصبحنا بشريين، وصار هذا العالم قريتنا الكبرى التي نجاهد فيها الظلمة أينما كانوا من أجل ترقيتها، وعندئذ نحس الإحساس الديني الذي أحسه جيته حين رغب في خمسين سنة أخرى بعد الثمانين؛ لكي يرى العالم موصولًا بقنوات تجعله قطرًا واحدًا.

ومن أعظم المقومات للشخصية بعد الخمسين أن يكون للإنسان نشاط اجتماعي يحمله على الاختلاط بالمجتمع، وعلى تحمل المسئوليات بالبر الاجتماعي، فإن هذا النشاط يشعره بالكرامة والمنفعة، وأن حياته ليست عبئًا عليه أو على المجتمع، وهذا الإحساس ضروري للصحة النفسية، بل للصحة الجسمية أيضًا؛ لأنه مرانة رياضية تنشط أجهزة الجسم.

وعلى كل رجل دخل في العقد السادس أو السابع من عمره ألا يستسلم لكلام من حوله بأنه ضعيف، وأنه يجب أن يستقيل من الحياة وشئونها كما استقال من الحرفة، فإنه إذا خضع لهذا الإيحاء فلن تمضي

عليه سنوات بل أشهر حتى يجد أنه كتلة هامدة تعيش على ذكريات الماضي، ولا تتطلع إلى المستقبل، فواجبه هنا أن يرفض الاعتراف بالعجز.

وكل هذا الذي ذكرنا عن الرجل بعد الخمسين ينطبق أيضًا على المرأة بعد الخمسين، وللتلخيص نقول: إن الشخصية بعد الخمسين تحتاج إلى:

(١) أن يتعود الإنسان مدة الشباب عادة النحافة والصحة.

(٢) أن يتعود الإنسان مدة الشباب عادة الثقافة، وأن يكافح لتحقيق الخير.

(٣) إذا لم تكن الثقافة عادته فلتكن له هواية أخرى، ولكن الثقافة هي خير الهوايات للشيخوخة.

(٤) أي نشاط اجتماعي يجعله يتحمل مسئولية اجتماعية للبر والخير، والمسئولية – كما يجب ألا ينسى القارئ – هي فيتامين الشخصية.

(٤) الشخصية الانطوائية والشخصية الانبساطية

في الجزء الأول من هذا الكتاب تحدثنا عن القواعد الوراثية للشخصية، وأشرنا بإيجاز إلى قيمة الغدد الصماء في صوغ الشخصية، وقلنا: إن معارفنا الضئيلة عن هذه الغدد تجعلنا نترك هذا الموضوع للمستقبل، فإن موضوع الغدد الصماء من أخصب الموضوعات الطبية في عصرنا، ولكن

خصوبته واعدة أكثر مما هي ناجزة، والشخصية هي ثمرة الوسط والمجتمع والمجهود الفردي (الذي هو أيضًا ثمرة الوسط والمجتمع) أكثر مما هي ثمر الوراثة، ما دمنا نتحدث عن الشخصية السوية؛ أي: الشخصية المألوفة في أوساطنا الاجتماعية، بل ربما يكون للوسط الاجتماعي نحو ٩٠ أو ٨٥ في المئة من تكوين الشخصية السوية، ولا يكون للوراثة سوى ١٠ أو ٥ في المئة.

ولكن مع ذلك يبدو من الأبحاث السيكلوجية الحديثة التي قام بها يونج وكرتشمر أن هناك مكانًا للوراثة يستحق الدرس، وأنه يمكن الاعتماد على هذه الأبحاث إلى حد ما في دراسة الشخصية.

فإن يونج يجد أن هناك طرازين من الشخصية أحدهما الطراز الانطوائي والآخر هو الطراز الانبساطي؛ أي: أن هناك أشخاصًا ينطوون على أنفسهم ويتسمون بمزاج انفرادي، يكرهون الاختلاط أو مباشرة الأعمال التي تحتاج إلى التدخل والتعارف الاجتماعيين، وهم قليلو الكلام يرتاحون إلى أنفسهم حين يفكرون في عزلة أو ينساقون لخواطرهم، والانطوائي يُحسن الأعمال والواجبات التي تحتاج إلى التدبير والتفكير، وهو لا يتفتح للفكاهة، ولا يسرف في السرور.

ولكن الطراز الانبساطي يختلف؛ لأنه يهنأ بالاختلاط، ويجد جنته في المجتمع، ويُقبل على كل نشاط يحمله على التعارف، وهو محدث مسامر يفاكه ويضحك، ويسهل عليه أن ينتصر في الحب والصداقة، وهو ينبسط وينكشف ويفر من العزلة، بل حتى دراسته تتجه اتجاهًا اجتماعيًّا.

وليس الفرق بين الانطوائي والانبساطي في الذكاء، فإنهما قد يتساويان ويتفاوتان، ولكنهما يفترقان في المزاج وبناء الشخصية والاتجاه الاجتماعي.

وقد زاد كرتشمر هذا الموضوع إيضاحًا، فإنه يجد ثلاثة أطرزة جسمية تدل على ثلاثة أطرزة نفسية:

(١) الطراز الأستيني: أي ذلك الشخص النحيف الذي لا يسمن مهما التهم من طعام، وهو يعيش مدى عمره نحيفًا مديد القامة معروق الوجه له رأس مستطيل أو كالمستطيل، وهو الانطوائي عند يونج.

(٢) الطراز البكني: وهو القصير، أو بالأحرى الممتلئ المكلثم، الذي يكثر اللحم على وجهه وله رأس مستدير أو كالمستدير، وهو ينزع إلى التجهم والاستكراش، وهو عند يونج الانبساطي.

(٣) الطراز الثالث هو الرياضي: أي ذلك الذي تنمو عظامه ويتسم بالقوة العضلية.

ويهمنا في هذا الفصل الطرازان الأولان؛ لأن اختلافهما الواضح يُحدث اختلافًا واضحًا أيضًا في شخصيتهما، فالشاب الانطوائي تعرفه بسمات جسمية في النحافة والطول، وبسمات نفسية في النفور من الاجتماع، وهو حيي كثيرًا ما يقع في الخجل، وكثيرًا ما يسيء السلوك الاجتماعي، يُخاصم ولا يُصالح، ومثل هذا الشاب لا ينجح كثيرًا في كسب الفتاة إلا إذا كانت انطوائية مثله، وهو لهذا السبب يتأخر في

الزواج، وإذا ساء حظه واقتضاه عيشه إلى أن يُؤدي واجبات اجتماعية فإنه لن ينجح فيها النجاح الكامل، وهناك أعمال اجتماعية كثيرة مثل: التجارة تحتاج إلى المزاج الانبساطي.

وهذا المزاج الانبساطي نعرفه في بيئاتنا الاجتماعية بذلك الشاب السمين أو كالسمين المستكرش الذي يفاكه ويتحدث كأنه ثرثار، وهو لا يطيق الانفراد، وهو كثير النكتة يحب الفكاهة والضحك، وهو أنيس مباسط مصالح، بل خير قوين وقت اجتماعات البهجة، وهو بالطبع يُحسن الأعمال التي تحتاج إلى اجتماع، والواقع أن لكل من المزاجين فضائله ورذائله.

ويمكننا أن نتعرف إلى هذين الطرازين في مجتمعاتنا العامة، ومن الحسن أن يعرف كل شاب إلى أي الطرازين ينتسب، حتى يختار العمل الذي يليق لمزاجه الذي يبدو من الأبحاث الحديثة أنه موروث، بل من الحسن أن يعرف هذا حتى بعد اختيار العمل؛ لأنه عندئذ يمكنه أن يقف على علة خيبته ويعالجها على قدر ما يسمح له به مزاجه، أو يختار هواية تتفق وهذا المزاج حتى لا يبقى متعبًا كارهًا لعمله؛ لأن الهواية عندئذ تصرف نشاطه المكتوم إلى شيء محبب إلى نفسه.

ومن المستحيل أن نحيل الانبساطي إلى انطوائي أو العكس، ولكن التعرف إلى الداء هو بعض الدواء، ويستطيع الآباء أن يتقوا أخطار المستقبل بأن ينظروا إلى أولادهم، فإذا كان الشاب كثير اللحم له ميل إلى السمن أو الاستكراش يحب الفكاهة والاجتماع؛ فإنه يجب أن

يوجهوه إلى عمل اجتماعي حيث يجد هناءته في الاجتماع، وإذا كان نحيفًا يُحب الانفراد والدرس، ويخجل ولا يحسن الاختلاط بالجنس الآخر أو بجنسه، فإنه يجب أن يختاروا له عملًا لا يحتاج للنجاح فيه إلى اختلاط دائم.

ولكن مع كل هذا الذي قلنا يجب أن ندرب الانطوائي على أن يكون انبساطيًّا إلى حد ما، والعكس كذلك؛ لأننا لا نعرف الظروف المستقبلة كيف تكون.

(٥) الشخصية القلقة وكيف تغير

في فصول سابقة تحدثنا عن الشخصية المريضة وكيف تغير، وعن العقبات الأصلية في المجتمع الحاضر، وهي التي تحول دون نمو الشخصية إلى الخصوبة والسمو.

ونحتاج إلى زيادة في البسط لهذا الموضوع حتى يقف القارئ على معظم هذه العقبات، ويتفادى منها أو يعالجها بعد الاصطدام بها.

وأكبر عقبة لنمو الشخصية هو القلق، ونعني هنا القلق الخطير وليس ذلك القلق الخفيف الذي نترجمه بالاهتمام، ويعد ضروريًّا للرقي؛ لأنه يشعرنا بالنقص ويحفزنا على النشاط، وحياة بلا اهتمامات هي حياة راكدة آسنة لا يمكن أن تنكشف عن شخصية نامية سامية، ولكن إذا كان القلق هَمًّا نجتره في الصباح والمساء ونشهد له؛ فإنه عندئذ يفتت

قوانًا حتى لا نكاد نتوفر على أي مجهود يرقينا، ويجب أن نعرف هنا أن الهم لا يحل مشكلة ما؛ لأنه اجترار نفسي لا يجدي.

وفي هذا الحال؛ أي: عندما نجد أننا نستهلك الوقت بالاجترار في مشكلة ما يجب أن نلجأ إلى صديق، ونبسط له هذه المشكلة؛ لكي يحلها هو بوصف أنه أجنبي عنها، كما يفعل الطبيب حين يمرض، فإنه لا يشخص لنفسه الداء ولا يصف الدواء، بل يتركهما لغيره، ولكن إذا كان هذا متعذرًا فعليه أن يشرح المشكلة كتابة في إسهاب، ثم يضع لها الحلول كتابة أيضًا ويختار أحسنها.

وفي مجتمعنا الحاضر يجب أن نقلق؛ لأنه يحملنا جميعًا على المباراة الاقتصادية، ويجعلنا عرضة للتعطل والمرض والفاقة والحرمان والحرب، ويجب أن يكون الإنسان جمادًا؛ لكي لا يقلق في مثل هذا المجتمع، والرجل المتعطل مثلًا يجب أن يحس قلقًا خطيرًا، ولن ينجع فيه النصيحة بأن يحيل مشكلته على أي إنسان آخر؛ لأن التعطل أصيل في المباواة الاقتصادية، والعلاج الصحيح هو إحالة هذه المباراة إلى تعاون.

ولكن هناك صنوفًا أخرى من القلق يمكننا أن نعالجها حتى في مجتمعنا الحاضر، وقد مر بالقارئ بعضها في هذا الكتاب، ولكن في إعادتها تأكيد لقيمتها في صحة الشخصية أو مرضها.

فالشخصية الحسنة لا تتلاءم مع القلق الذي ينشأ في التشطط في المطامع، وخاصة المطامع المالية؛ لأن انحصار النشاط في غاية معينة يجعلنا

أسرى لهذه الغاية، فلا تجد الشخصية غذاءها للنمو الصحي والثقافي والاجتماعي والروحي، وأعظم المطامع التي تؤذي من ناحية تكوين الشخصية هي – كما قلنا – المطامع المالية، وهذه الظاهرة واضحة في كثير من الناس نجد أحدهم شحيحًا خائفًا مجدًا مثابرًا على العمل كأنه العبد المسخر، يبخل على نفسه وأهله؛ لأنه منهمك في اقتناء المال، وهو قلق، يتفاوت قلقه بين الهم المطبق والنيوروز المرهق.

وعكس هذه الحال نجده في الكساد النفسي، حين تركد النفس وتحجم عن الطموح، فلا تكون هناك رغبة في التوسع سواء أكان ماليًّا أم غير مالي، وبالطبع لا تنمو الشخصية مع هذه الحال.

وعلاج هاتين الحالتين هو التوسط، فلا شطط ولا ركود، أما الاختناق الاقتصادي الذي يؤدي إلى التعطل، وكذلك الاختناق الجنسي الذي يحول دون الزواج؛ فكلاهما عائق عن نمو الشخصية، بل كلاهما يدفع إلى الإجرام أو الرذيلة، والمجتمع الحاضر هو المسئول وحده عن هذا النظام، والنصح للفرد بأن يعالج هذه الحال بكيت وكيت هو كلام سخيف عقيم.

ونحن في هذا الكتاب لم نفرض المستحيل بالدعوة بأنه يمكن أن يكون لكل إنسان شخصية نامية راقية، فإن العيب الأصيل في المجتمع، وهو المباراة الاقتصادية، يحول عند آلاف من الشبان والفتيات دون صوغ الشخصية السامية، والواجب الديني على كل إنسان بار أن يغير هذا المجتمع إلى نظام التعاون.

وقصارى ما نستطيعه هنا أن ندعو القارئ الذي يحس قلقًا أن يتعرف إلى عقله الباطن، ويبرز شهواته ورغباته الخفية، ويسلم لها ببعض الشيء، حتى يخف الكظم، كما أنه يتجنب الكساد الذهني والنفسي بأن ينشط إلى تحقيق رغباته الذهنية والنفسية.

وفي حياة كل منا تمر أوقات يعد بعضها نقطة طورية؛ أي: أننا ننتقل فيها من طور إلى طور فتتغير شخصيتنا، فيجب أن نرضي هذا التطور ونتغير بلباقة وخفة، فالمراهقة مثلًا نقطة طورية خطيرة، وكذلك سن اليأس في الرجل والمرأة معًا، بل كذلك – في مصر – لقاء الزوجة بالحماة واضطرارها إلى معاشرتها، وأحيانًا لقاؤها بالضرة.

فجميع هذه الحالات تطالبنا بالتكيف الصحيح السليم، وهي بالطبع تبعث فينا قلقًا نتخطاه في سهولة أو نقع فريسة له، فيجب أن ندرس هذه الحالات جيمعها ونستعد فيها للتغير.

والقارئ الذي هضم الفصول السابقة يعرف أننا نُكبِّر من قيمة المسئولية في تكوين الشخصية، وكذلك الدراسة، ورسم المثليات، والانضمام إلى فريق يدافع عن قضية عادلة، وكذلك أوضحنا قيمة الهواية، وهذه جميعها تُخفف القلق، وتسري عنا الهموم الأصيله في مجتمعنا بعض الشيء؛ فيجب أن تكون جميع هذه الأشياء العلاج الإيجابي لتغيير الشخصية القلقة.

(٦) تلخيص

هذا الجزء الأخير قد خصصناه لتغيير الشخصية، فبينا في الفصل الأول أن التغير السليم للشخصية يحدث كجزء من طبيعتنا، وأن في عمر الإنسان نقط؛ أي: أوقات، ينتقل فيها من طور إلى طور، وأنه ما دامت الظروف حسنة فإن التغير يتم بلا ضرر أو خطر، ثم خصصنا فصلًا آخر للتغير المريض للشخصية، وكيف يمكن أن نتقيه ونعالجه، ثم تحدثنا عن الشخصية بعد الخمسين، وكيف يجب أن نستعد للشيخوخة حتى تكون حياتنا في هذه السن خصبة نافعة، وبينا بعد ذلك الصعوبة الأصيلة في طرازين مختلفين هما الشخصية الانطوائية والشخصية الانبساطية، والفصل الأخير هو محاولة لمعالجة القلق.

الفصل السابع

خاتمة

الشخصية الجديدة للقرن العشرين

ليس هذا الفصل للمتواضعين ولا للقانعين، وإنما هو لأولئك الذين أدركهم روح العصر فأحسوا ناره ونوره، وهم لا يشبعهم حديثنا عن قيمة الملابس أو اللغة أو الهواية في تكوين الشخصية، بل يطلبون أكثر من ذلك.

وليس هناك قواعد مطلقة للشخصية تليق لجميع العصور، فنحن والعالم في تغير؛ لأن الإنسان ليس كائنًا وإنما صائر، والفلسفة الجديدة تدعونا إلى الإيمان بالصيرورة دون الكينونة، وما دامت الشخصية تنمو وتزكو بمقدار ما تتحمل من مسئوليات؛ فإن ممشكلات العالم التي تحدث هذه المسئوليات دائمة التغير، وهي لذلك تتطلب مسئوليات جديدة، وتقتضي شخصيات جديدة.

والشخصية الجليلة في عصرنا هي التي تتسم بالعقل العام فهي ليست شخصية قروية في السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو العلم، نعني أن الذهن ليس محدودًا والنشاط ليس مقيدًا بسياسة القطر الذي نعيش فيه، ولا بقواعده الاجتماعية أو الاقتصادية، وأننا لنرى حتى في عصرنا علماء قرويين في أسلوبهم، يتخصصون تخصصًا أعمى، ويرفضون بحث الميادين

العلمية التي لا تمت إلى موضوع تخصصهم، وليس لهؤلاء شخصيات مثلى.

فالشخصية الجديدة للقرن العشرين هي الشخصية العالمية، شخصية الشاب الذي يدرس مشكلات الولايات المتحدة والصين وألمانيا وروسيا وجاوه والهند وكينيا، كما يدرس مشكلات مصر؛ لأنه قد ربَّى نفسه حتى صار هذا العالم – عقلًا وعاطفة – وطنه.

وقد قلنا: «إنه قد ربَّى نفسه» والتربية الحقيقية لا تبدأ بالمدرسة ولا بالجامعة، وإنما هي تبدأ حين نشرع نحن في تربية أنفسنا؛ لأنها تصير عندئذ عضوية تسد نقصًا أو تتم وظيفة في النفس؛ لأننا حين نُربِّي أنفسنا نتحسس الدراسة بمقدار حاجتنا النفسية، كما نطلب الطعام بمقدار جوعنا، وإذا كان روح العصر ليس بعيدًا فإننا ننساق في تياره فنصبح عالميين.

وهذه العالمية تكسبنا الدين البشري الذي يحملنا على احترام الإنسان أينما كان، وعلى أن سعادته هي الغاية الأخيرة لكل رجل نبيل الذهن والقلب، وهو دين ينأى عن الغيبيات الصبيانية التي كان يؤمن بها الإنسان أيام الفراعنة والبابليين.

ومتى نضجت الشخصية العالمية فإن التدين البشري يصير ألمع صفاتها، يغمر جميع نشاطنا الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعلمي؛

أي: أننا لا ننشط لعمل ولا نبذل أي مجهود إلا ولنا هدف واحد؛ هو الخدمة البشرية في وطن الإنسان، هذه الدنيا.

وعندئذ لن تصير الثقافة تسلية أو لهوًا، بل مجهودًا نجمع به المعارف كي نصلح به الدنيا، فالمعارف أدوات كفاحية غايتها تغيير هذا العالم الآسن الحافل بحشرات الاستبداد والثراء، وهي حشرات تفشي بيننا الفاقة والمرض والحرمان والجهل.

وهذه الثقافة هي التي تجعل كلامنا فنانًا وعالمًا وفيلسوفًا؛ لأن الفن والعلم والفلسفة هي جميعها بعض ما تتطلبه المسئوليات الجسيمة التي تتسم بها الشخصية الجديدة للقرن العشرين، فيجب على كل منا أن يكون موسوعي الذهن، يدرس جميع المعارف التي يحتاج الرقي البشري إليها، وليس هذا بالشاق على متوسط الذكاء فضلًا عن الذكي، وهذا يعني في النهاية أن يعيش كل منا طيلة عمره طالبًا دارسًا، ومتى وصلنا إلى هذه الدرجة فإن الفن عندئذ لن يكون محدودًا في قاعات نُسميها متاحف، بل هو ينتقل إلى لباب شخصياتنا كما إلى شوارع المدينة وجدران المنزل، والأسلوب الفني لن يقتصر عندئذ على الكتابة أو الرسم أو النحت، بل هو ينتقل إلى الحياة حين نعيش المعيشة الفنية التي تزكو بها الشخصية.

والشخصية الجديدة للقرن العشرين هي الشخصية الإيجابية الكفاحية التي تُجيب على أسئلة الحياة ومشكلاتها بنعم وليس بلا؛ أي: أنها تعمل وتبني، ولكنها مع ذلك قادرة على أن تنقض وتهدم، فيجب أن

نبني الصحة والمعرفة والفن والرخاء، ولكن يجب أن نقف في وجه الظلمة شجعانًا قادرين على أن نهدم التزاويق الغالية التي تكلف مجتمعنا أعباء ثقيلة بلا أية فائدة للشعب، وكل ما يقال عنها تقاليد عريقة، وهي حقًّا تقاليد، ولكن ليس لرفعة الشعب بل لدوسه.

والشخصية الناضجة للقرن العشرين هي جماع الشجاعة والثقافة، هي شخصية الثورة الهادمة البانية، فإننا قد بلغنا نقطة طورية في تاريخ البشرية هي الانتقال من نظام المباراة الذي يحطم كفاءتنا ويهدم شخصياتنا إلى نظام التعاون الذي يبنيهما، وعلى الرجل الجديد أن يتحمل مسئوليات هذه الشخصية الجديدة.

والرجل الجديد هو الذي يحيا الحياة الابتكارية بدلًا من الحياة الأسلوبية، وهو الذي يحترف المجد ويمارس الشجاعة مع القداسة، وهو الشخص المتطور في الأمة المتطورة، وهو الذي يحس أن العالم في ارتباطه الجديد لا يحتاج إلى زعيم؛ لأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة لا تطلب زعيمًا للأمة أو زعماء أو ملوكًا أو أمراء، وإنما تطلب الديمقراطية الكاملة ليس في السياسة وحدها، ولكن في الثراء والتعلم والثقافة والفن والأدب، فهو يسعى لهذه العالمية، ويتصرف التصرف البشري العالمي، ولا يقتصر على التصرف الوطني.

الفهرس

الشخصية الناجعة

هذا الكتاب :

يحاول أن يقدم للقارئ العادي ماهية الشخصية وقيمتها، وكيف يمكن أن نكوِّنها ، ذلك أن الظروف الاجتماعية التي تحيط بنا قد تعوق نمو الشخصية بشكل إيجابي ، كما أن هناك عادات تفشت بين الشباب تحول دون رقي الشخصية ، جدير بأن يفهم كل ما ينبغي عليه فهمه كي يُنمِّي شخصيته ويرقيها على الرغم من العوائق الاجتماعية القائمة.

والشخصية التي قصدها المؤلف في كتابه هي الشخصية السليمة، وليست الشخصية المريضة؛ لأن هذه الأمراض كثيرة وشرحها يحتاج إلى عدة كتب، وقد لا يفهمها غير المختص، ويخاطب الكتاب الشاب العادي الذي يعيش في المدينة ويختلط بالأوساط الحكومية أو التجارية، أو يعيش ويكتسب بالعمل الحر مستقلًّا أو موظفًا، وهو قبل كل شيء يحتاج إلى النجاح.